محمد بن عبدالله القاضي

مرافئ على ضفاف الكلمة

الطبعة الأولى

حمد بن عبدالله القاضي

مرافئ
على ضفاف الكلمة

•• دخل هذه الطبعة من الكتاب لـ
"جمعيات الأيتام في المملكة العربية السعودية" ••

التوزيع

=========

• مكتبة جرير • مكتبة العبيكان

***

• الشركة الوطنية للتوزيع ٩٢٠٠٠٠٨١٣

ح حمد عبدالله القاضي ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاضي، حمد بن عبدالله
مرافئ على ضفاف الكلمة/ حمد عبدالله القاضي .- الرياض،
١٤٣٨هـ - الطبعة الأولى
١٧٠ ص، ١٧ × ٢٤ سم
ردمك ٤-٠٢٦٥٠-٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- المقالات العربية- السعودية- أ. العنوان
ديوي ٠٨١ ١٤٣٨/٢٦٥

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٢٦٥
ردمك ٤-٠٢٦٥٠-٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

إهداء

إلى أعز النـاس ..

«أمِّي» موضي بـنـت صالح العليان
–رحمها الله– تلك التي رحلتْ في
طفولتي ففقدتُ حنـان أمومتـهـا، فأدلجتُ
أبـحث عن هذا الحنـــان بـين حبـر الكلمات،
وحب النـاس، وحنـايا الأوفيـاء .. وقد لقيـت
– بـحمد الله – كثيـراً مما افتـقدته ..!!

• حمـد •

بسم الله الرحمن الرحيم

غازي عبدالرحمن القصيبي

هذه المرافئ!

حمد القاضي لم يغمس قلماً في مداد
ويكتب على ورقه..
إنه يغمس وردة في محبرة الحب..
ويكتب على شغاف القلوب..
لهذا تجيء كلماته رقيقة... ودوداً
ناعمة... ودوداً
حتى عندما يمس المأساة..
ويفتح الجراح..
وفي هذه المرافئ..
حديث عن قضايا الإنسان كلها..
عن الموت والحياة.. والسلم والحرب..
والقراءة واللقاء.. والمرض والعافية..
والضحك والبكاء.. والبداية والنهاية..
كلمات عن الهموم الكبيرة..
وكلمات عن الهموم الصغيرة..
كلمات رقيقة كلها..
ناعمة كلها..
كوردة مغموسة في محبرة الحب!

غازي ...

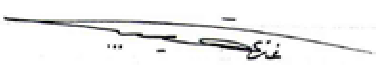
مقدمة الكتاب بخط د/ غازي القصيبي رحمه الله

تقديم

د/ غازي القصيبي

●● هذه المرافئ !

حمد القاضي لا يغمس قلماً في مداد ..
ويكتب على ورقة ..
إنه يغمس وردة في محبرة الحب ..
ويكتب على شغاف القلوب ..
لهذا تجيء كلماته رقيقة دوماً .. ناعمة دوماً ..
حتى عندما يلامس المأساة ..
ويفتح الجراح ..
وفي هذه المرافئ ..
حديث عن قضايا الإنسان كلها ..
عن الموت والحياة .. والسلم والحرب ..
والفوات واللقاء .. والمرض والعافية ..
والضحك والبكاء .. والبداية والنهاية ..
كلمات عن الهموم الكبيرة ..
وكلمات عن الهموم الصغيرة ..
كلمات رقيقة كلها ..
ناعمة كلها ..
كوردة مغموسة في محبرة الحب !



فاتحـــة

« فيا قارئي يا رفيق الطريــق
أنا الشَّـفتـــان وأنت الصـــدى
سألتُـــك باللـــه كن منصفـــاً
إذا ما ضممت َحروفـــي غـــدا
تذكّــر .. وأنــت تمرّ عليهـــا
عذابَ الحروف لكـــي تُولـــدا»

«شاعر عربي»

إضاءة بين يدي المرافئ

هذه الحيـاة ..

ليست أكثر من «مرافئ» تتوقف قوارب حياتنا عندها .

ففي مراحل العمر : خطوات طفولة .. ووقفات صبا .. ووثبات شباب .. ثم نضج رجولة، فتأملات كهولة، فضعف شيخوخة .. ثم مرفأ النهاية الحتمي ..!

وفي فضاءات هذه الحياة نسعد بمرافئ الخير، ونـهنأ بضفاف الحب، ونبتهج بمكتسبات الوطن، تماما كما نتألم عند صواري الشجن، ويورق الألم في وديان جوانحنا عند رحيل الأحبة .

هذا الكتاب لا أقدم هــذه الكلمات « صداقاً » بين يديه، لكن حســبي أن أضع أمامك - أيها القارئ - مفتاح « صدقي » الذي أستتشــرف أن تمســك به لتدخل - بســلام - غرفات صفحاته، وساحات كلماته ..!

وقد قسَّـمته إلى أربعة فصول : «مرافئ اجتماعية»، «مرافئ وطنية»، «مرافئ تأملية»، و«مرافئ ثقافية»، وكل فصل يندرج تحته عدد من الموضوعات التي تناسبه، ولتقطف - أيها القارئ - ما يروق لك من هذه المرافئ حسب ميولك واهتمامك .

إن كان لــي أمنية فهي : أن تجد بين مــدارات حروف هذا الكتاب «مرفأ عطاء» تفيد منه، و «ســطر نور» تستضيء به، و «صدر حرف» تســتريح إليه، و «حرفا غير مجذوذ» تستظلّ لحظات تحت خيمته.

ستجد ـ يا من سترافق أحرفي ـ بين أروقة هذا الكتاب كلمات ممزوجــة بالرحيق والحريق معا .. رحيــق الصدق .. وحريق

الحرف، ولعل ذلك يشفع لي عندما تجد في بعض كلماته عوجاً أو أمتا.

إن ما حرّضني على نشــر هذه الحــروف أنها أغلى وأبقى مكاســبي، وهي جسر تواصلي الأندى مع الآخرين، إنها الخيط الرفيع الذي أقف عليه ما بين «رحلة الورد وارتحال الرماد» .

•••

أما قبل ..!

فحسبي أن هذه الكلمات فيض من وجداني، وقطعة من سمرة صحرائي .. وبقايا من بساطة بلدتي الوادعة .. وذبالة صفاء لم تستلبها مدنية عصري .

لقد كانــت «الكتابــة » بالنســبــة لــي خيــاري فــي هذه الحياة.. وإن لم تكن هي الخيار الأكمل فإنها ـ بكل تأكيد ـ كانت الخيار الأجمل والأنقى.

ورحم الله الشــاعر الأديب د. عبدالله العثيمين عندما ألفيته خير من عبر عني في هذا الكتاب:

«إن كنت عبرّت عما دار في خلدي
فما رميت ولكن الإله رمى»

وبعد:

أدعكــم مــع «كتابي» . . فلــذة كبد حروفــي الأغلى، وأنا موقن بصدق تلقيكم، متوشّــح بفضل تواصلكم، موشّى بفيض تسامحكم، وأتوق كثيرا أن تضوع مفرداته بين حدائق قلوبكم، ولا يضيع وهجها في عتمات هذا الزمن «المعتل الآخر».

• المؤلف •

رسالة

●● إلى قراء وقارئات هذا الكتاب: أنيب في التعبير عن تحيتي لكم ذلك الشاعر الذي قال في بيتين صادقين:

«يا صديقي: يا رفيق الطريق
أنا الشفتان وأنت الصـــدى
إذا ما ضممت حروفي غـــداً
تذكر عذاب الحروف لكي تولدا»

• حـــمد •

مرافئ اجتماعية

***

«وفمي تذوّق مرّها ورحيقها
لا المرُّ دام ولم تدم نعماء»

«الشاعر مقبل العيسى»

***

«وكن بلبلا تحلو الحياة بشدوه
ولا تك مثل البوم ينعق بالرَّدى»

« الشاعر إلياس قنصل»

الحياة ومعادلة الانتصار والانكسار

الحياة مزيج من انتصار وانكسار، من نجاح وفشل، من فرح وترح . وكلنا ـ في هذه الحياة ـ نمر بهذه المواقف .

ننتصر وننكسر، تتخضب أيامنا بالفرح آونة، وتتكحل ليالينا بالترح آونة أخرى، ننجح أحيانا، ونفشــل أحياناً أخرى، ولو لم تمر علــى كل واحد منا هذه المعادلة لمــا كان للنجاح طعم، ولا للانتصـــار نكهة، ولا للفرح مذاق، والســعيد المرتاح هو القادر على أن يتعامل مع كل ألوان الطيف في هذه الدنيا، ســـواء أكانت فاتحة مشرقة، أم قاتمة معتمة.

لقــد أراد الله أن تكون الحياة مزيجاً مــن العذوبة والعذاب، لنعرف قيمة الأشــياء الجميلة بها لنســتمتع بها ونســعد بأريج عبقها.

إننـــا عندما نــدرك أن كل ما ينالنا في هــذه الدنيا من هزائم ومصائب مقدرة في كتاب من قبل أن يبرأها الله فذاك لكيلا نأسى على ما فات، ولا نبالغ بالفرح بما هو آت .

إن كل شيء محدد ونافذ في هذه الحياة بالدقة والقدر والزمان والمكان .

ومهما عمل الإنسان فالمقدر كائن عليه، وهذا يريح كل إنسان عاقل، فما بالك بالمؤمن الذي يعرف ويؤمن أنٍ ما قدره الله كائن ومتحقــق . لكن هذا لا يعني ألا نحس بالألم أبداً .. إنه مع كل هذا التسليم فالإنسان مطلوب منه الأخذ بالأسباب التي تجنبه الهزائم والفشــل والمصائب، والإنسان لا يعلم الغيب وهو يفعل الأسباب يفرّ من قدر الله إلى قدر الله .

وحسب الإنسان راحة واقتناعاً أنه عندما يعمل الأسباب يرتاح

مهمـــا كانت النتائج، لأنه عمل ما عليـــه والباقي على ربه الذي توكل عليه، وهو أدرى بما يسعده وينفعه، فهو مالك روحه التي هي ســـر حياته وبقائه، فكيف بشؤون الحياة الأخرى ونجاحاتها وانتصاراتها الخزفية.

إنني أتوقف هنا عند أنموذج مشـــاهد ومحسوس، تتبدى فيه مظاهر الفرح والترح والانتصار والانكسار أكثر من أي أنموذج آخر.

ذلك هو «الميدان الرياضي»!

إنه عندما تنتهي المباراة لابـــد أن يكون هناك فريق منتصر وآخر مهزوم.

ولهذا تعلو رايات الفرح، وتغرد عصافير الســـعادة، وتشرق أقمار السرور في قلوب هذا الفريق وجماهيره.

بينمـــا الفريق المهزوم يغـــادر الميدان والحســـرات تغرس مناجلها في أفئدة لاعبيه وجماهيره.

لكن لو لم يكن هناك انتصار وهزيمة لما فرح هذا وتألم ذاك .

وإذا مـــا فرح هذا الفريق مرة فإنه ســـوف ينهزم مرة أخرى لينتصر ويفرح الفريق الآخر، ولابد من هذه المعادلة لكي يتحقق مفهوم الفرح والترح، لكن المطلوب بكل اســـتطاعة الإنسان أن يكون الفرح في حدود، والألم في حدود لوقت معلوم.

فالدنيا وليست « الكرة » وحدها هي التي تدور.

ألم يقل الشاعر الحكيم المجرب :

«ألا إنما الدنيـــا دولاب يدور

فلا حزن يدوم ولا ســـــرور» ؟!

أجل..

الدنيا كلها تدور تماماً مثل «الكرة» بين زوايا الملعب.

احترام المرأة:
كان يدخل ضاحكا بساما

احترام وتقدير المرأة لا يعني الاحترام الشكلي لها سواء كما يفعل بعض الرجال في شرقنا أو كما يفعل كثير من الرجال في الغرب كتقديمها بالمشي أو إلباسها «المعطف لديهم» و«العباءة لدينا» ونحو ذلك .

لكن الاحترام الحقيقي للمرأة هو احترام مشاعرها، وإنسانيتها وشراكتها والتعامل معها باعتبارها إنساناً له حقوقه وأحاسيسه، وله همومه وأفراحه، وله شؤونه وشجونه ..!!

وإكرام المرأة لا يعني فقط إغراقها وإغراق منزلها بالمتطلبات المادية التي قد تمنحها سعادة ظاهرية لكنها قد لا تلامس أحاسيسها ..!

إن احترامها الحق يجيء بالتقدير الصادق، وبالكلمة الطيبة، وبالتعامل المضيء، وبالإحساس بهمومها واهتماماتها .

وهنا أروي - وأنا أسمع عن أسلوب تعامل بعض الرجال مع نسائهم - قول السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن صفوة الخلق محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - موضحة تعامله مع زوجاته عندما سئلت رضي الله عنها : كيف كان رسول الله يدخل منزله ؟ قالت : «كان يدخل ضاحكاً بسَّاما» ولاحظوا أن لدى الرسول من المسؤوليات الجسيمة ما لدى آلاف الرجال، ولاحظوا أنه خيرنا كبشر، وهو خيرنا لأهله ..!

كـــم يخطئ بعض الرجال عندما يتصـــورون -جهلا أو عمداً- أن احترامهم مـــن قبل زوجاتهم وبناتهـــم وأولادهم لا يكون إلا بالعبـــوس والتجهم وبالكلمات النابيـــة، والصراخ المحرق، ولو عقلـــوا لأدركوا أن الاحترام الذي لا يكـــون باعثه الكلمة الطيبة، وحافـــزه المحبة، إنما هو احترام هـــش، بل هو كراهية لا تزرع محبـــة، بل هو «خوف» أكثر منه هيبة، والخوف لا يقيم علاقات ســـعيدة وناجحة، بل هو «رعب» يسكن القلوب والمنازل فيحيل سعادتها شقاء، وراحتها تعباً، ودفئها صقيعاً..!

إن التعامل بالمحبة، وبالحســـنى مع أقرب الناس من زوجات وأولاد لا يعني هدم جدار الاحترام من قبل الزوجة، أو شرخ سور التربية الرشيدة من قبل الأطفال.

إنني أدرك أن لكل مقام مقالاً، فالحزم والشدة مطلوبان أحياناً، لكن الخطأ هو أن تكون «القسوة» هي السيف المسلط دائماً، وأن يكون «العبوس» هو طابع التعامل المستديم.

إن لكل نمط من التعامل مكانه ووقتـــه، وإن وضع العنـف مكان اللطـف أو العكس أمر غير رشـــيد، لكن الرشـــيد أن يكون للطف مكانه، وللحزم مواضعه.

إننا مطالبون أن نكون قوّامين على الناس بالقســـط، فكيف لا نكون قوّامين بذلك مع أقرب الناس إلينا ؟ إنهم الأولى بأن نكون معهم قوّامين بالقسط، وقائمين عليهم بظلال الحب.

بين
سيف العقل ومطر العاطفة

عندما نريد اتخاذ موقف

هل نستخدم العقل أم العاطفة..؟!

إننـــا في الكثير من أمورنا المصيرية نقف حيارى بين دوافـع العقـل وحوافز العاطفة..!

«العقل» يقف كشـــيخ وقور جلله المشـــيب يوصي بالاتزان والحكمة والرفق، و «العاطفة» كشـــاب متوقد يحفز على المزيد من الانطلاق والاندفاع.

ونحن أحيانا نعتمر عقل الشيخ، وأحيانا ننجرف وراء إغراء العاطفة.

ومن هنا .. فنحن نصيب أحيانا، ونخطئ أحيانا أخرى !!

ويبقى العقل ـ في البدء ـ هو الذي يمسك بدفة السفينة ويسير بها الى الشـــواطئ الآمنة .. وكم كان ذلك الأعرابي مصيباً عندما قـــال له ابنه والموت يقتـــرب منه: بما توصيني يـــا أبي ؟ قال: أوصيك بمشاورة عقلك.

«الانفعـــال» قـــد تكون آثاره مزيـــداً من الخســـارة، والذين يمتشـــقون ســـنان انفعالاتهم يحصدون ـ من بعده ـ ثمرات الندم والألم.!

إن الإنسان يقف ـ في بعض الأحايين ـ وقفة مدجّجة بالحيرة بين نوازع العقل وحوافز العاطفة .. بين التضحية من أجل غيرنا،

والتمسك ببعض الأشياء من أجل ذواتنا.

وكم تذكرني أمثال هذه المواقف بموقف الشاعر « ابن زريق البغدادي » عندما خرج من بغداد موكلا بفضاء الله يذرعه ليطرد جحافل الفقر عنـــه، وعن زوجته الصابرة التي فضلت أن تعيش معـــه في « كوخ » يملـــؤه الحب والحنان علـــى «قصر» تملؤه الدراهـــم والدنانير، لكنه رأى صعوبـــة العيش مع أنياب الفقر؛ فقـــرر الرحيل بحثـــا عن الرزق، وقد كان ســـفر « ابن زريق » صعبـــا.. ولكن بقاءه أصعب .. ولما كانا أمرين أحلاهما مر، قرر السفر لطلب الرزق، غير أنه لم يجد إلا أنياب آلام الغربة تنهشه .

«إعتضت عن وجه خِلّي بعد فرقته
كأسا أُجرَّع منها ما أُجرّعــه
وكم تشبّـث بي يوم الرحيل ضُحًى
وأدمعي مستهِّلات وأدمعـــه»

زبدة القول:

يبقى للعقل مكانه الذي لا يحتله غيره، وللعاطفة مكانتها التي لا غنى عنها، لكن الســـؤال، متى نســـتخدم العقل، ومتى نحتمي بمطر العاطفة؟

هل نجرب المحبة ..؟

لا جرم أن أشياء كثيرة تغيرت في حياتنا ..!
وأن الزمن سيبدل الكثير من القيم والمثاليات..
لكن..!
لم نسأل مرة أنفسنا..
لماذا تغيرتٍ هذه الأشياء .. ومن الذي غيرها؟
أجزم يقيناً أننا سنقف على حقيقة مفجعة .ٍ. ومكشوفة لوٍ أردنا الإجابة أو حاولنا الوصول إليها، لكننا كثيراً ما نتوارى جبناً عن مواجهتها..
إننا - نحن البشر - وليس غيرنا الذين وارينا كثيراً من القيم.. ملأنا فضاءاتها بالضباب .. وبالتالي أترعنا جوانحنا بضباب أكثر كثافة وعتما..!
هل «تستأهل» الحياة أن نتصادم فيها - بوصفنا أفراداً- إلى درجة القطيعة؟ دعونا من حروب الدول وسعيها لنيل «الشرف الرفيع» أو «الوضيع»..!
ولكن .. نحن - بني البشر - هل ندرك أننا سوف نعيش سنوات معدودات ؟ .
أليس من الأجدى والأوفر سعادة أن نذرع دروب العمر ونحن نحمل مشاعل المحبة .. والصفاء ؟ أم الأجدى أن نسير فيها ونحن نتأبط «هراوات» العداء والشحناء ؟
هل نجعل لهاث الزمن يختطف شهقات الفرح في أروقة قلوبنا، وحميمة ودفء التواصل مع أحبائنا.
أليس مؤلما جدا أن نتصور وجود قطيعة - بسبب مادي- بين أخ وأخيه، بين جار وجاره، بين صديق وصديقه.

أليست الحياة وما فيها كما صورها شاعر العصور - في بيت بسيط، ممتلئ صدقاً:-

«ومراد النفوس أهون من

أن نتعادى فيـه أو نتفانـــى..!»

إن كل قطيعة تتم إنما هي بسبب «مراد النفوس».. ولحاك الله يا «مراد النفوس»..!

فكم مزقت من وشائج، وهدمت من علائق .!

ألا نقدر أن نشـيع ثقافة التســامح بين أوراق قلوبنا لتطيب حياتنا وحياة غيرنا «فلا يستطيب العيش الا المسامح» .

أعرف صديقاً كلما شـعر أن قريباً أو صديقاً قد ابتعد عنه أو أحس في نفســه شيئاً عليه يقوم بـ «زيارته» أو يهاتفة أو يبعث له برسالة «جوالية» أو «واتسية» ليغسل مـا علـق في نفسه .. لقد أصبـح النـاس فـي هذا العصـر «الرمادي» - يتأثرون بكل شيء، وبسبب أدنى شيء، ولعلهـم لا يجدون من يسقطون عليه غضبهم من عصرهم سوى الآخرين من حولهم.!

تُـرى هل جربنا طريقة «هذا الإنسان» في تعامله مع أصدقائه وأقاربه؟ عندها ســوف تصفو قلوب كانت مســكونة بالكراهية، وستعود العلاقة بين بيوت متباعدة، وسيرجع الصفاء إلى جوانح ممزقة.

هل نجرب مرة مثل هذا؟

هل ندرك حقـاً فـي قــرارة دواخلنـا أن مراد النفـوس أهون من أن نتعادى فيه أو نتفانى.

ليتنا نحس بذلك لنريح ونستريح..!

ليتنا نجرب المحبة..!!

حوار مع «كرسي» ..!

كان أول يوم له على هذا الكرسي ..!

امتطى صهوته فرحاً، الدنيا تكاد لا تتسع لتغريد طيور الفرح في صدره، موظفو المؤسسة من حوله يباركون له.. رنين الهاتف لا ينقطع من مبارك إلي مهنئ إلى داع لوليمة..!

وفي اليوم الثاني كان على «كرســـيه» صباحاً بعد أن انفض سامر المهنئين والمتصلين..!

التفت إلى «كرسيه» الذي يقتعده.

فكر وتدبر..!

كم من «مدير» جلس عليه وغادره؟

كم من عمل طيب شهده هذا الكرسي؟

كم من دعاء استمع إليه؟

كم من مظلمة شهد هذا الكرسي رفعها؟

وفي المقابل:

كم من دعوة قاسية سمعها تُلقى على مسامع من يجلس عليه؟

وكم من هوى لمحه يعتلج بين أنامل من يمتطيه؟

وكم من خير منعه، وشر نشره؟

***

وأمام جبال الأسئلة إلتفت إلى نفسه وسألها سؤالاً واحداً.!

هل سوف أستمر على هذا الكرسي؟

وكان الجواب بالطبع لا، فلو دام هذا الكرسي لسابقك ما انتهى إليك.

عندها قال - في حوار داخلي مع نفسه:

إذن مـــا الذي علـــي أن أعمله مادامت القضيـــة مؤقتة مهما طالت؟

هكذا طرح السؤال الحاد على نفسه..!

وعند هذا الســؤال بدأ ممارسة عمله .. وبدأت إجابته الحقة عن هذا السؤال الإجباري.!

ما الذي غيرنا..؟!

«كلما تدرجت الأمم في دروب المدنية والعمران فإنها ترقُّ أخلاقها ويتهذب سلوكها».

هذه هي إحدى المسلَّمات التي تحدث عنها المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون في مقدمته.

كلما تذكرت هذه المقولة التي يفترض أنها الحقيقة دائما، لكن إذا نظرت إلى بعض فئات مجتمعنا ومجتمعاتنا العربية الأخرى ألقى عجباً وأصطدم بمنكر من التعامل، وبشراسة من القول وزوراً.

إن مما ينبت أشجار الدهشة أننا يجب أو يفترض فينا أن نكون ـ نحن العرب ـ بمفازة من هذه الشراسة في التعامل، والقسوة في الكلم ؛ ذلك أننا ـ أولا ـ قوم في طبيعتنا الرقة والتهذيب، ولين الجانب !!، وليس أدل على ذلك ـ مع الأسف ـ من لين جانبنا لأعدائنا حتى انقض الأعداء على أرضنا، واستولوا على قدسنا من بعد، وعلى أندلسنا من قبل ومعذرة على هذا الخروج عن النص، فما إلى هذا الحديث الأليم قصدت، فقد بنينا « أهراما من الكلمات » ونحن نتحدث عن أمجادنا الضائعة..!

أعود إلى مربط فرس حديثي، وأقول إننا ـ فعلاً ـ قوم شفافون « تذيبنا الأعين النجل » كما قال شاعرنا العربي، وتأسرنا ـ كما أسرت أجدادنا ـ «الكلمة السّحر» حتى لتكاد تأسر عقولنا، وثانياً أننا أمة هذبها الله بالإسلام .. دين السماحة والتعامل الراقي «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » «وقولوا للناس حسنا» «إليه يصعد الكلم الطيب» «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم طلاقة الوجه وحسن الخلق» «الكلمة الطيبة صدقة» وعشرات بل مئات النصوص القرآنية والنبوية

التي جعلت الأخلاق - وفي ذروتها الكلمة الطيبة - جزءاً لا ينفصل عن مسلّمات الدين بل جاء النص النبوي بأن «الدين المعاملة».

***

تُرى ما الذي غيَّرنا، أو تغير فينا ؟

إن الحضارة يُفترض فيها أن تهذبنا.. فنحن ودعنا قساوة الصحراء، وجلاميد الجبال، وخشن الملابس، وأصبحنا نسكن منازل الرخام، ونلبس أنعم الثياب، ونمتطي مترف الرواحل، والإنسان ابن بيئته، فقد حولت « عيون المها الجميلة » ابن الجهم من شاعر يكتب بالأحجار إلى شاعر يعزف قصائد على الأوتار .!

لكن ما بالنا مرة أخرى..!

أصبحنا نضن بالكلمات الجميلة.. وأضحينا نبخل بالبسمة في وجوه غيرنا، حتى عندما يقدم الإنسان لإنسان معروفاً قد نضن عليه بكلمة شكر، أوٍ سطرٍ امتنانٍ .. وقد يساعد أحدنا الآخر فلا يلقى منه إلا صدودا، وأحياناً منكرا من القول وسيئا من الفعل.

هنا أذكر حكاية لطيفة رواها الكاتب العربي الراحل مصطفى أمين - رحمه الله - في ذكرياته .. يقول : « لقد كانت والدتي شديدة في تربيتنا .. قاسية في تعليمنا الأخلاق والأدب فكانت لا تعطينا «أنا وأخي علي» أي شيء إلا إذا قلنا لها أو لغيرها: من فضلك .. ولو قدر لنا ونسينا ذلك حرمتنا مما نريد حتى ولو كان الحليب الذي به نعيش، وأذكر - والحديث لمصطفى أمين - أنني أول ما ذهبت لأمريكا كنت من شدة تأثري بتعليمات أمي أنني عندما استخدمت المصعد، ونزلت في الدور الذي أريد إلتفتُ إلى المصعد وقلت له: «شكراً»..!

هل جيل «االجولات الذكية والكمبيوتر والإنترنت» غير جيل «السراج والشظف والقربة والطين»؟!

حوار بين
خيار العمل والراحة .!

ذات مساء

كنـــت في حوار مع صديق ومدير لشــركة كبيــرة لها علاقة بالناس، قال لي وأنا أحاوره: أشــعر بعد أن أمضيت في العمل ما يقارب «٢٥» عاماً بالسأم والملل .. لقد سئمت من الرتابة، ومن قيـــود العمل، ومن الالتزامات التي تفرضها عليّ تبعات المنصب من اجتماعات، ومن حضور مناسبات، ومن سفريات ليست من خياري.

قلت له: اتفق معك .. ولكن ألا تعتقد أن عملك رسالة، ومهما كان فيه مـــن متاعب إلا أن فيه متعة من خـــلال العطاءات التي تقدمها للآخرين، ولوطنك من خلال مؤسستك التي تسهم بطريق مباشر أو غير مباشر في شموخ هذا الوطن، وخدمة الناس .

قـــال : هذا صحيـــح .. لكن دعني أكون أنانيـــاً وأتحدث معك بأسلوب اقتصادي.

إنك عندما تنظر بحســـاب الأرباح والخسائر، تجد أنني أعمل وأجهد نفســـي وأنا أســـتطيع أن أعيش «حياة رغدا» من خلال الدخل الذي ســـوف يأتيني بعد تركي العمل، وقد أقوم ـ مع ذلك ـ بعمـــل مريح يزيد من دخلي وليس فيه اســـتهلاك للجهد والوقت

والصحة، وليس فيه ما يرهق من السفريات والرسميات المرهقة وعندها أكسب بقية عمري.

قلت : ـ وأنا أكاد أميل إلى رأيه ـ ولكنني ـ وفي سياق خطابي الإقناعي له ـ قلت له ـ وأنا أحاوره ـ : ألا تستطيع أن توفق بين مطالب عملك ورغائب نفسك بأسلوبك الاقتصادي؟

قال: لقد حاولت ذلك، لكنني وصلت إلى قناعة هي : أن أعيش بقيـــة عمري دون هذا الإرهاق.. أريـــد أن أمارس هواياتي دون أن يســـرقني وقت العمل منها.. أريد أن أسافر دون أن يلاحقني «الجــوال» و «الإيميل» و«الواتس» .. أريد أن أمنح أســـرتي وأولادي أكبـــر وقت ممكـــن.. أريد ـ أخيرا ـ أن أجـــد وقتاً كافياً لنفسي وحتى «لهواجسي»..!

قلت: ـ وقد رأيتني أميل كثيراً إلى رأيه بدلاً من إقناعه.. إنني أشعر ـالآن ـ بصواب رأيك .. فما أصعب المواءمة بين مسؤوليات العمل الثقيل وراحة النفس المأمولة .!

إنها معادلة صعبة وعسيرة..!

التاجر والكاتب: بين تجارتين ..!

لا أدري لمـــاذا انطبع لدى بعض الناس أن التجارة شـــر «وأن كل التجار فجَّار» - عياذاً بالله..

ألم يعلموا أن الله ســـبحانه وصف الإيمان بالله وباليوم الآخر بأنه تجارة تنجي من عذاب الله، وتجلب رحماته..!

لا جناح في التجارة فهي لا تتقاطع إطلاقاً مع مضيء الأخلاق وبهيِّ القيم .

إن العيـــب في صنف من التجار.. وفي نوعية المواد المتاجَر فيها.!

فإن كان التجـــار صادقين في تعاملهم غير باخســـين الناس أشـــياءهم، صالحين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، كانت تجارتهم بركة في الدنيا وسعادة في الآخرة، و « نعم المال الصالح للرجل الصالح»، وإن كانوا غير ذلك كانوا أشـــراراً، وتجارتهم شر تجارة.!

وإذا كان للآخريـــن مطلب من التجـــار ورجال الأعمال، فهو أن تكون القناعة «كســـاء» يرتدونه، تجعلهـــم يرضون بالربح المعقـــول .. فيبـــارك الله لهم في تجارتهم وفـــي مالهم، ونحن - بوصفنا مستهلكين - نرى أن «قناعتهم» تريح قلوبنا وجيوبنا.

***

هذا ما يتعلق بتجارة الأشياء المادية ..!

لكن - ماذا عن تجارة الكلمات -؟!

إن هذه بئســـت التجارة - وكاتب هذه الســـطور هو واحد من

المنتســـبين لعالم الكلمة ـ وأسأل الله أن يباعد بيني وبين تجارة الكلمات.!

إن «المتاجرة بالكلمة» هي خيانة للأمانة، وللرســـالة الملقاة على كواهل الكتّاب، وأسنة أقلامهم «وأزرة كيبورداتهم».

الكلمة يكون لها رسالتها كلما اعتمرت الصدق، وابتعدت عن دروب الدجل والزيف، وكم مـــن «كلمة قالت لصاحبها دعني»، وكـــم من «مقالة» قالـــت لكاتبها ليتك ما حبرتني، والإشـــكالية الكبيرة هنا أن الكلمة ليست كالبضائع المادية يمكن أن تُسترد أو تُستبدل ـ وإن كان عدد كبير من الباعة ألغوا هذه القاعدة ـ .. إن الكلمة رصاصة عندما تنطلق لا يمكن ردها أو دفعها..!

***

قبل أن أختتم هذا الموضوع دعوني أهنئ التجار على مهنتهم.. إذ أن رزقهم يجيء ـ في الأغلب ـ رخاء سخاء غدقا، وإن لم يكن ذلـــك لهم كلهم فإنه لأكثرهم، أما الكتّاب ـ وأنا أعني أغلب الذين يعيشـــون على حصاد أقلامهم ـ فإن العائد المادي المتواضع لما يكتبون لا يأتيهم إلا عبر جسر من التعب والضنى والسهر، تعب الأعصاب، وضنى القلب، وســـهر الأحـــداق، ولكن رغمٍ كل ذلك فهم يعشـــقون هذه «النار الدافئة» ولا يرضون بها بديلا؛ إذ هم يعانقـــون فيها الورد والجمر معاً، ولكن ورد الحرف ينتصر على جمر العناء أبدا.

و

« وجع الحرف رائع أو تشكو
للعصافير وردة حمـــــراء؟»

التعدد:
ماذا لو أنصف الرجال ..!

لست أرى أتفه ولا أقل جدوى من تكرار طرح ذلك السؤال الذي نراه شبه لازمة في الكثير من اللقاءات الصحفية والإذاعية، ذلك السؤال الذي يطرح على الشخص الذي تُجرى معه المقابلة حول رأيه في تعدد الزوجات.

إن هذا السؤال عديم الجدوى عندما يطرح في مجتمع مسلم .. ذلك أن إباحة التعدد ليست موضع خلاف أو اجتهاد، أو هي في حاجة إلى رأي شخصي .. ولهذا لا تأتي إجابة المسؤول عن السؤال بأدنى رأي جديد أو وجهة نظر أخرى.

إن قضية التعدد محسومةٌ لدينا «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أنِ يكون لهم الخيرة من أمرهم».

ولعل الحوار يجيء مقبولاً حول شروطٍ وظروف وأسباب التعدد الذي هو جائز وليس واجباً .. ولعل الذي جعل التعدد بغيضاً لدى النساء هو الظلم الذي وقع على بعض زوجات الرجال المعددين ويستوي ذلك الظلم على الزوجة الأولى وهو الأكثر، أو الثانية التي لا خطأ حصل منها.. ذلك في نظري هو الذي صيرّ بعض النساء يخترن الفراق على المرأة الأخرى.. لأنهن رأين ورأى أطفالهن بعد زواج أزواجهن صنوفاً من خطأ الظلم والجحود والتنكر واللامبالاة .!!

وهذا ما شوه قضية التعدد وأحاطها بأسوار شائكة.

إنني أتصور أنه لو أنصف الرجال وكان لإقترانهم بأخرى أسباب وجيهة ما شقيت الزوجات وأولادهن، وإذا كان الرجل غير قادر على العدل فيما يملك من مبيت ونفقة وما شابه ذلك فليتق الله ولا يعدد، وهذا هو ما فرضه الشرع عندما أجاز التعدد «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة».

إن التعدد لا تترتب عليه مشكلات في أغلب الحالات لا للرجال ولا للنســاء، عندما تكون له أســبابه، وفي الوقت نفســه يمنح السعادة لآلاف النساء اللائي اقترن برجال متزوجين.

ولكن متى يتحقق ذلك؟

إنني أتصور أن سلبيات الزواج الثاني تنتفي أو ينتفي أغلبها، عندما تتحقق ثلاثة أمور.

أولها: وجود سبب مقنع للتعدد وبالطبع ليس بالضرورة أن يكون هذا الســبب نزوة عابرة، وليس هذا السبب مقصورا على عقــم الزوجة أو مرضها فقط .. بل قد يكون الدافع عصمة الرجل واستقامته على الطريق الصحيح، والجميل لو رضيت به الزوجة لقناعتها بالأسباب التي أدت للتعدد .. إن هذا سبب شرعي وجيه للتعدد، وتعدد الزوجات خير ألف مرة من تعدد الخليلات.

وثانيهــا: وجود القدرة لدى الرجل وليــس المقصود القدرة الماديــة فقط بل والقــدرات الأخرى من قوة الجســم على أداء الواجب الزوجي والقدرة على التربية وإدارة المنزل.

وثالثها وأهمها: هو «العدل» .. العدل فيما يســتطيعه الرجل من مال ومبيت وسفر وغيره .. وإنني لأجزم حد اليقين أنه لو أن كل رجــل عدل بعد زواجه الثاني لما تكونت تلك الصورة المعتمة عن التعدد لدى كثير من النساء.

إن بعض الرجال ـ مع الأسف ـ تجاهلوا تعاليم دينهم وماتت ضمائرهم، ونسوا زوجاتهم وبيوتهم وأولادهم عند اقتران الواحد منهم بأخــرى أو صار العكس أهمل الثانية والتفت للأولى، ومنٍ هنا كانت كثير من المشــكلات والسلبيات .. وإنني لأعرف رجالا معدّدين وفقهم الله إلى العــدل بين زوجاتهم وبيوتهم وأولادهم، ولهذا فإنهم يعيشــون في ارتياح وتحــت غيمة من الحب تظلّل قلوبهم وقلوب زوجاتهم وأولادهم.

أجل ..
«لا تعدم الحسناء ذاما» ..!

نحن نركب الصعب
ونخطب المستحيل
عندما نتصور أننا نستطيع أن نرى كل الأشياء كاملة، ونريد كل الأشخاص كاملين.
إن النقص طبيعة الإنسان
والعيب قاعدة في أغلب الأشياء
وهـــذا أمر طبيعي جدا كدوران الأرض، وحياة الأســماك في المياه

لكن غيـــر الطبيعي أن يكون من طبيعة الإنســان البحث عن المثالب في الأشياء أو الأشخاص بمعنى أن ننظر إلى رزايا الحياة والناس دون أن نلتفت إلى مزايا الحياة والناس ..!

إن «لكــن» ملتصقة بألســنة بعض النــاس .. فما أن يجيء الحديث عن شــخص فيثني عليه الجميع حتى ينبري أحد أولئك الذين نفوســهم بغير جمال فيدق مســمار «لكن» في مزايا هذا الإنسان.

وما أن يتم الحديث عن شأن من شؤون هذه الحياة حتى تجد أحدهم يبادر بـ «لكن» هذه وكأنه موكل بإحصاء عيوب الأشــياء ومثالبها..!

ومـــا أجمل تلك القصة التي وردت في الكتاب التراثي الجميل «مجمـــع الأمثال» عندما روى قصة مقولة « لا تعدم الحســناء ذامـــا»، تلك الكلمة المثل التي أطلقتها المرأة العربية «حبى بنت مالك العامريـــة»، عندما خطبها ملك غســان، وكانت على قدر من الجمال فأســرع أهلها في تجهيزها وإدخالها عليه، فلما جاء الصبح وخرج إليهم ســألوه عنها فقـــال : «ما رأيت كالليلة لولا

رويحـــة أنكرتـها»... وكان أهلها قد نســوا الطيب فلم يطيّبوها.. فقالت له ولهم من خلف الخبــاء بكل حيـاء، «لا تعدم الحســناء ذاما» ..! وذلك حق..!

وما قالته هذه المرأة العربية حكمة تبقى على مر الأجيال ..!

إن بعض الناس بحاجةٍ إلي أن ينزعوا الغشـــاوة عن عيونهم ليروا أن في الدنيا خيراً وفي الوجوه جمالا، وفي الناس أخيارا.. وإذا كان في بعض النــــاس معائب، فإن الكثير منهم فيه مناقب.. وإذا كانت الدنيا مليئة بالأحجار فإن فيها الوافر من الأزهار..!

والمأســـاة تجيء عندمـــا يكون ذكر المعائب بســـبب «هوى النفوس».

فيصبح الحق باطلاً، والنهار ليلاً، والورد حجراً.

لكن الواثقين من أنفســـهم يسيرون في دروب الحياة، وملء جوانحهم الإيمان والثقة، وما عليهم إن عابهم الناس أو مدحوهم.. وقديما قال الشاعر العربي:

«ومن في الناس يُرضي كل نفس
وبين هوى النفوس مدى بعيـــد»

***

لكـــن كيف تتم مواجهة الكلمـــة الظالمة التي لا يراد بها وجه الحق؟

هـــل بالانحناء لها ـ كما يقول أحد الحكماء: «عندما تســمع كلمة نابية فدعها حتى تمر وتضيع في الهواء»، ذلك رأي حكيم، لكن من يقدر عليه سوى الراسخين بالصبر الذين يستطيعون كما وصفهم القرآن أن يقولوا سلاما عندما يخاطبهم الجاهلون.

أم تكـــون مواجهة الكلمة الخاطئة بفاحـــش من القول؟ لكن الخطأ لا يعالج بالخطأ، بل بالحـــوار، والمنطق .. وعندها تذوب الكلمة الخاطئة.

عندما يورق الحوار نفعا ..!!

هناك قاعدة ذهبية في الحوار، لو اتخذها المتحاورون نهجاً، لأثمر الحوار خيراً، وأورق النقاش نفعاً، ولما تحول الحوار إلى جدال ولجاج..!

تلك القاعدة تقول : «إنه ليس كل مجتهد مصيباً ولكن - بالتأكيد - لكل مجتهد نصيب».

ليتنا نؤمن أن كثرة الجدال والحرص على تخطئة الآخر، واللجوء إلى ساقط القول لا يمكن أن تقنع شخصاً، أو تحق حقاً، بل حصيلتها فشل الحوار، وربما الفرقة والضغينة..!

لو أن كل متحاور في المجالس أو في الندوات أو في البرامج أو مواقع التواصل أوقع في نفسه أن الحق قد يكون معه، ولكن ليس بالضرورة أن يكون الحق معه دائماً، وهنا إما أن يقنع محاوره - بالحوار الواعي - بأن الحق معه، أو تتكشف له بالإصغاء للطرف الآخر جوانب تريه أن الحق الأبلج إنما هو مع محاوره وليس معه.

وهذا لا يتم إذا تحول الحوار إلى ملاحاة، وصار الجدال لجاجاً.

إن هذا يتم عندما يكون حرصك على الإصغاء - كطرف محاور - أكثر من حرصك على الحديث باعتبار أن الحق ضالة المؤمن سواء نبع ذلك من ذاتك أو تلقيته من غيرك، ويتم -

أيضاً- بترك التعصب وبالقبول بالحق دون إحســـاس مريض بأن ذلك ينال من قدرك أو كرامتك.

إن كل إنسان يستطيع من خلال الحوار المسموع أو المكتوب أن يأتي بأقسى الكلمات ولكن ليس كل إنسان قادراً على أن يُنبت على شفتيه طيّب الكلمات، ولهذا قيل - ذات مرة - لشاعر مجيد: إنـــك لا تســـتطيع أن تهجو بقدر إجادتك للثنـــاء، فقال لهم جواباً مفحماً : «إن الشـــاعر الذي يستطيع أن يقول: حسّـن الله وجهك قادر على أن يقول: قبح الله وجهك»..!

وهذا صحيح فعلاً..!

ولكن ما بين القدرة على قول الحســـن والاقتدار على النطق بالقبيح مســـافات ضوئية طويلة لا يســـتطيع أن يقطعها إلا أولو العزم من الناس.

الحياة قصيرة .!

«الحياة قصيرة»:

ولأنها كذلك فمن العبث أن يضيعها الإنسان بإشغال نفسه وكل أوقاته بماديات الحياة والركض خلف مطامعها فلا يجد وقتا لكي يجعل الفرح يضوع بالسعادة عطراً ينساب في وديان حياته والأحباء من حوله، وهو الذي قد يغادرهم أو يغادرونه في أي لحظة .. فالأعمار بيد الله..!

«الحياة قصيرة»:

وكم من إنسان ألهته الدنيا والانشغال بالناس فلم يستمتع بمال أو يهنأ له بال .. فهو يركض من أجل ضم الريال إلى الريال.

« الحياة قصيرة »:

وكم من إنسان قصّر في حق أب، أو رحمة أم، أو واجب جار، أو حق قريب من أجل استغراقه في توافه الحياة وجمع بهارجها، وإضافة «أرقام» إلى «أرقام» في رصيده بالمصارف .

«الحياة قصيرة»:

لا « تستأهل » أن يُشقي الإنسان نفسه بمعاداة الآخرين، وخصومتهم.. فهو راحل وهم راحلون، من هنا ليس أجمل من أن يقضي حياته معهم بسلام..!

«الحياة قصيرة»:

لا تعادل ضحكة طفلك ملايين الدنيا التي قد تجمعها، ويأخذها غيرك. الحياة قصيرة بل هي أقصر - كثيراً - من إراقة كل جهدنا وجهودنـــا فيها في ماديات الحياة التي قد لا يجلب الانصراف إلى تحصيلها بالكلية إلا الهم والضغط والسكر والأمراض.

«الحياة قصيرة»:

لا «تســتحق» أيامها المحدودة، وأنفاسنا المعدودة فيها أن نتكاســل أو نقصر أو نحرم أنفسنا من بذل خير، أو إضاءة درب، أو إعانة إنسان.

«الحياة قصيرة»:

لذا علينا أن ندرك أنه لن يرسم دوائر الفرح في نفوسنا، ولن يبقى لنـــا إلا «الطمأنينة» التي نزرعها داخــل ذواتنا، والإيمان الذي تصدقه الجوارح، وكم نظلم أنفسنا عندما نقصر في حقوق اللــه علينا فنتكاســـل عنها أو نهملها، وبعدها يكون «النـدم» العظيم حين لا ينفع مال ولا بنون ولا تفيد أسهم ولا صكوك.

إن الحياة - كما قال أحد الحكماء الذي عرف حقيقة الدنيا -«لقد تجاوزت الآن الثمانيــن وأيقنت أن عذوبة الحياة في طمأنينتها، وأن عذابها في لهاثها».

الحياة تمضي ما بين شـــهقة ألم، وإشــراقة فرح، فلنسع كي تنتصر الثانية على الأولى في دروبنا ودروب غيرنا.

وبرا بوالدتي .!

هي شهد الرحيق بعد لظى الحريق.

هي التي ترويك بعد أن يلهب دواخلك ظمأ الدنيا.

إنها، الإنســان الوحيد الذي يهبك حنان الوجود عندما تحيط بك قسوته دون أن تنتظر منك عطاءً ولا شكوراً.

إنهــا، التي لا تخذلك أبــداً حتى عندما يخذلــك قريب الناس وبعيدهم.

إنهــا، هي التي تحرِّضك على فعل كل شــيء جميل ليس من أجلها، بل من أجلك أنت وحدك.

إنها هي التي تفيض عليك دعواتها فتجعل الطمأنينة «تسيّج» قلبك فتحسّ بالراحة والأمان.

تأملوا معي هــذه القصة، لتدركوا كم هي رحمة الأم بســعة الدنيا، وكم هو إيثارها فلذة كبدها حتى على نفسها.

«جاء رجل في العصر العباســي إلى بيت امرأة، وطرق بابها وطالبها برد «دين» عليها فأبــدت المرأة قلة ذات يدها، فغضب عليها الدائن، وضربهــا وانصرف، وجاء إليها مرة أخرى ففتح له الباب ابنها وسأله عن أمه، وقال له: إنها خرجت إلى السوق، وظن الرجل بالابن الكذب فضربــه على كتفه ضرباً غير مبرح، وإذا بأمــه تأتي في هذه اللحظة، وقــد رأت الرجل يضرب ابنها فبكت بكاء شــديدا، فقال لهــا الرجل فيما يشــبه الاعتذار: لقد ضربتــه ضرباً خفيفاً، فلماذا تبكين وقــد ضربتك بالأمس ضرباً مبرحــاً ولم تبك، فأجابت الأم أو أجــاب قلبها: «بالأمس ضربت جلــدي، واليوم ضربت كبدي»، فتأثر الرجل الدائن، وعفا عنها، وأقسم ألا يطالبها بالدين الذي عليها بعد اليوم.

***

حسبك أن تلفظ كلمة «الأم» .!

فيزهر على فمك شـجر الـورد، ويندّاح في قلبـك ندى الحنو والأمان.

حسبك عندما تعزفها بشفتيك أن يحلق على مدائنك جناح الحنان.

أمـا عندما يصدح الطفل أو يصرخ : «ماما» . عندها .. وعندها فقط تتعطل لغة الكلام.

أيتها الأم:

يا من بحضورها يزهر الندى وبغيابها يقيم الجفاف.

يا من تحترقين ألماً بين أضلاعك، وتورقين أملاً في قلوب بنيك .

يا ساكبة الدعوات التي تزرع سنابل السكينة في فلذات أكبادها، وتنزع بكلماتها سنابك القلق من بيادر نفوسهم.

تـرى..!

هل ينقضي الحديث عن الأم، وهي التي عندما يمر اسـمها على الشـفاه تعبق فرحـاً .. وعندما يلامس حنانهـا حنايا القلب يفيض بشـراً، وعندما يعبر خيالها أحداق العيون تضحي الدنيا حدائق من السرور.!

لتقتربوا من أمهاتكم قبل أن يرحلن عنكم أو ترحلون عنها قسراً وأخفضوا لهنَّ جناح الذل من الرحمة.

ليحفظ الله كل أم على قيد الحيـاة، وليملأ قلوب أبنائها وبناتها حنوًّا وبراً بها

وليرحـم الله كل أم انتقلت إلى جوار ربها، وليلطف الله بها كما لطفت بهم وانسكب قلبها حنانا على أبنائها، وليجبر كسر كل مكلوم ـ كبيـراً أو صغيـراً ـ برحيل نبع محبتـه، وليعوضه عن دعواتها الصادقات التي ترفعها من ضفاف خافقها إلى عنان السماء.

حديث السمر في مساوئ السفر..!

ضمني ذات عام مجلس كان فيه شرائح مختلفة من أنماط المجتمع، ودار الحديث فيه عن السفر والإجازة وأين ذهب كل شخص وما مر به في رحلته.

ولعل الغريب أن أغلب المتحدثين تحدثوا عن السفر حديث الشاكي لا الشاكر والمتضايق لا المرتاح وأغلبهم كانوا مسافرين خارج الوطن «المملكة العربية السعودية».

فواحدٌ أشار إلى معاناته في السكن الذي استأجره وما لقي فيه من نقص في التأثيث وعدم نظافة المكان وغلاء السعر، و «نكّد» ذلكً سفره ـ كما قال.

وآخر تحدّث بألم عن الخسائر التي تكبدها لكونه خليجياً، فالأسعار كانت مضاعفة عليه سواء في الأسواق أو المطاعم أو السكن أو السيارات، والمؤلم أن هذه الأموال تسلب بغير وجه حق؛ لأن السائح من بلد غني فقط، أو يفترضون أنه غني.

وآخر أشار إلي «المرض» الذي ألمّ به وأسرته جراء تناولهم بعض الأطعمة في بعض الفنادق الراقية جداً وكيف تعبت أجهزتهم الهضمية.!

أما الرابع فقد تحدث عن عمليات النصب والاحتيال التي تستهدف السائح الخليجي..!

ما يحيّر الإنسان أن المسافر يريد أن يرتاح وليس لديه استعداد للجدال وحصول تجاذبات مع الآخرين، لذا تجده أحياناً يتنازل عن حقه الصراح..!

الذي يبدو في «السفر» أن هناك تضاداً عكسياً فكلما توافرت وسائل السفر المادية الحديثة كان هناك مزيد من العناء في السفر، ذلك العناء المعنوي والنفسي الذي يفوق العناء الجسدي في السابق، حيث إنه أشد مشقة وإرهاقاً.

***

وإذا كان الشاعر ذكر خمس فوائد للسفر - وهي معروفة - فهناك شاعر آخر هجا السفر وعد له عيوباً كثيرة، حيث جعل بدل الفوائد الخمس سبع مضار للسفر، ذلك هو الشاعر «الطرموشي» الذي قال:

«تخلَّف عن الأسفار إن كنت طالبا
نجاة ففي الأسفار سبع عوائق
تباعد أوطان وفقد أحبة
وتشتيت أموال وخيفة سارق
وكثرة إيحاش وقلة مؤنس
وأعظمها يا صاح سكنى الفنادق..!»

والحق أن الشاعر محق وبخاصة في هذا الزمن .. زمن المخاوف وعدم الأمان..!

ولعلي أضيف هنا إلى مساوئ السفر المتعددة سيئة أخرى، وهي أن السفر قد يحرمك من القيام بواجب إنساني أو اجتماعي تجاه عزيز لديك، فأنت أحيانا بسبب السفر لا تستطيع - لبعد المسافة - المشاركة في أفراح صديق أو مواساة قريب أو عزيز.

قليلا ٠٠ من الحب أحيانا ٠٠!

حينــــاً عندما تفكر فيمن تحبهم كثيراً من أبناء أو أصدقاء أو أحباب بودك - لو اســـتطعت - أن تخفــض من درجة محبتك لهم..!

هذه الرغبة ليس بســـبب أن صــــدرك ضائق بمحبتهم، أو أن قلبك لا يتسع لمساحات حبهم..!

وليس بسبب انحيازك لخيار الكراهية على خيار الحب .!

لكنَّ هناك شيئاً يحفزك على هذه الرغبة، هو تخفيف الفاجعة على مشاعرك عندما تتخيل فقدهم..!

وهذا ليس ضرباً من التشـــاؤم . لكنها حقيقة يجب أن نســـلم بها.. فلابد من الفراق، عندما يزورك أو يزورهم ريب المنون.

ولهذا لابد أن توطّن نفســـك على فقد هؤلاء الذين تشـــعر أنه لا نكهـــة للحياة من دونهم، بل تتصور أحياناً أنك لا تســـتطيع أن تعيش الحياة بدونهم..!

إننــــا عندما نقلل من كمية أمطار محبتهم في حقول نفوســـنا فنحن نســـعى إلى تخفيف حدة فراقهم فــــي الدنيا، وفاجعة فقدهم عندمــــا يرحلـون إلى الـدار الآخــــرة . إن مرارة الفقد تهون قليلا - وإن كانـــت مؤلمة - عندما تكون على ظهر هذه الأرض .. لكن الأوفر شـــجى عندما يكون الغياب تحت باطن الأرض .. وهنا لا

تبقى سوى رحمة الله مؤنساً ومواسياً.

***

●● مـــا أســـعدنا بالحب عندما نتضوع عبـــق الأحباب بيننا، وعندما تعمر العافية أجسادهم وأجسادنا.

ولكن «ما أشقانا بهذا الحب» عندما يسكننا الخوف على من نحب ويتلبَّســـنا ثوب القلق عليه، أو عندما يســـافرون من ظهر الأرض إلى باطنها.

لذة العطاء وقارورة العطر..!

«إنك لا تستطيع أن تسكب العطر على غيرك، دون أن يصيبك قطرات منه.!».

هذه الحروف المزهرة أجاب بها ثري فرنسي يملك قدراً كبيراً من الإنسانية وذلك عندما عتب عليه صديق له بأنه ينفق أمواله، وكان الأولى به أن يوفرها لنفسه .. فكانت هذه الإجابة التي تنساب عطاء وعطراً.

إن لذة العطاء من أجل الآخرين إحساس لا يهبه الله كل الناس .. إن الاستمتاع بالعطاء فضاء مليء بالحبور، والذين لا يستشعرون هذه اللذة هم ـ بالتأكيد ـ أناس لا يدركون متعة انتشار الضوء في دنيا الوجود.

الحياة تبقى فاقدة مضمونها كتمثال خزفي عندما نعيش فيها لنفوسنا .. ولدوائرنا الضيقة .!

الحياة رخيصة «كالبيض الفاسد» عندما نتكور فيها حول ذواتنا.. وكم هو تعيس ذلك المجتمع الذي لا يرحم أثرياؤه بؤساءه.

«الرحمة» خيط نوراني يجعل الوجود يتوشَّح بالابتسامة وبالفرح، وبسنابل السعادة، وبازدهار المحبة.

إننا ـ بالضرورة ـ لا نستطيع أن نقضي على الفقر .. والآلام.. لكننا نستطيع أن نخفف منها، ونقلص من آثارها ومن جراحها

بتصعيد شــعور اللذة بالبذل ليكون حافــزاً نحو فضاءات العطاء لنزرعه في تلك الحدقات التي تظمأ إليه.

أجزم أنه ليس «المتنبي» وحده الذي يرى أن أجمل وجه في الورى وجه محسن، وأن أيمن كف في الورى كف منعم.!

ولعل كــون الكرام أجمل الناس وجوهــاً يتم من خلال نظرة الناس إليهم، ومحبتهم لهم.!

لكن هناك حقيقة علمية جديدة تقول : إن الكرام أوفر ســعادة من غيرهم من طبقة البخلاء والمقترين والأنانيين .. لقد ظهرت دراســة في نيويورك لعدد من علماء النفــس بجامعة «ديوك» نشرتها «بدوريتها العلمية» تقول:

«أدرك علمــاء النفس الآن أننا نكون أســعد ما نكون عندما نفكر في الآخرين، وأن الناس يكونون أوفر سعادة عندما يكونون كرمــاء ويهتمون ويعتنون بالآخريــــن، وهذا ما أعلنـه دكتـور مايكل واليش الـذي أجرى دراســة متعمقـة في هذا الموضوع اســتغرقت خمس ســنوات وقال : لاحظنا أن السعداء هم أولئك الناس الذيــن يتصفون بالكرم ويهتمــون بالآخرين ولم يقتصر اهتمامهم أبداً بأنفسهم فقط».

وأحسب أن ذلك ليس غريباً، بل هو قريب جداً من الحقيقة.

فالكرماء يوسعون من دائرة سعادتهم ومدارات أفراحهم .!

وبدلا من أن ترتسم ابتسامة واحدة على شفاههم فإنهم يرون

معها عشرات الابتسامات التي أسهموا في زرعها بفعل عطائهم وسخائهم.

ولعل شاعرنا القديم أشار قبلهم إلى أنه لا تكتمل سعادته بل هو لا يريد هذه السعادة إذا لم تعم الآخرين، فلا نزلت عليه سحائب ليس تنتظم البلادَ.!

وما أصدق من قال:

«إذا جادت الدنيا عليك فجد بها

على الناس طراً قبل أن تتفلَّت

فلا «الجود» يفنيها إذا هي أقبلت

ولا «البخل» يبقيها إذا هي ولّت»

هذا ثواب «الكرماء» في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فحسبهم هذا الوعد الإلهي: «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» البقرة ـ آية ٢٧٤.

غنائية لعيون منزل قديم ..!

كنت أظن الوفاء لا يكون إلا للإنســـان وللأوطان، أما أن يكون لشيء آخر فذلك لم يدر بخلدي.!

لقد عشت إحساس الوفاء لشيء غير الإنســان وغير الوطـن ذلــك عندما قدر لي الانتقال مـــن منزلي القديم إلى منزل آخر في حي آخر.

لقد أحسست بالحنين إلى ذلك المنزل الذي ألفته، ولعله ألفني طوال الســـنوات الماضية، وأحســـب أنه سعد بي وسعدت به من منطلق أن البقاع تشقى وتسعد، كما قال «الفاروق عمر».

لقد آمنت ـ من خلال هـــذه التجربة «الانتقالية» ـ أن الوفاء كما هو للإنسان يكون «للحجر» أيضاً.

إنني أمر أحيانا بمنزلي القديم وأكاد أقبل ذا الجدار وذا الجدار، ولكن ليس عن عشق ـ كقيس وليلى ـ إنما عن بقية وفاء .!

لقد تيقنت بعد هذه التجربة أن الإنســـان عندما يغادر المكان، فإنـــه لا يفقد التراب والجدران .. إنه يغـــادر أولئك الأحبة الذين أنس بهم وبقايا ذكريات ســـكنت ذاكرته، والجيران الذين ســـعد بصحبتهم.

من هنا تجيء لوعة الانتقال من دار إلى دار.

وكم هي رائعة ومؤثرة قصة جار الإمام «الحسن البصري» ـ

رضي الله عنه ـ، عندما أراد جاره أن يبيع بيته فوضع له ســعراً «عشــرة آلاف درهم»، وعندما عرضه للبيع بهذا الســعر قالوا له: إنه لا يســتحق أكثر من خمســة آلاف درهم، لكنه رد عليهم رداً بليغــاً قائــلاً: «قيمــة البيت خمســة آلاف، وجيرة الحســن البصري خمسة آلاف».

ولما علم الإمام الحسن البصري استبقاه وأعطاه خمسة آلاف درهم ليبقى مجاوراً له.

وبعد:

تلك هي الحياة « انتقال من دار إلى دار » ونقلة من حال إلى حال، واســتبدال جار بجار، ورحيل من زمان إلى زمان .. ولكن يظل لبعض الأمكنة تميزها، ولبعض الســاعات عذوبتها، ويبقى الانتقال الأصعب : الانتقال من الدار الدنيا إلى الدار الأخرى، نقلنا الله جميعا إلى نعيمها.

أيها الوفاء للإنسان وللزمان وللمكان:

ما أنداك «غيمة» تُمطر على القلوب شوقاً ..

وما أبهاك «نغمة» تنتثر على ثنايا العمر أرجاً ..

إنه سر تلاقي الأرواح وحسب ..!

بعض الوجوه تألفها حالما تنظر إليها.

وبعض الأصوات تتآلف معها سرعان ما تسمعها .

وبعض الناس ترتاح إلى قسـماتهم وإلى «طلعتهم» ربما من أول لقاء معهم..!

وبعضهم الآخر على الضد من ذلك وجوهاً وأصواتاً وناساً .!

وقد تعجز أن تفسّـر ذلك .. أو ترجعه إلى دليل عقل أو حجة منطق.!

إنه «سر» عجيب .!

أمـر يعود إلى تجانس الأرواح قبل أي شـيء آخر، وقد قال الرسـول ـ صلي الله عليه وسـلم ـ الـذي لا ينطق عن الهوى: «الأرواح جنود مجنـدة ما تعارف منها ائتلـف وما تنافر منها اختلف»، وقد صدق ورب هذه النفس التي خلقها فسواها..

يقولون : إن حديث العيون ولغتها يعبران عن الحب ويجسدان الكراهية..!

وقد يكون في هذا شيء من الصحة، والشاعر العربي يقول:

«والعين تعرف من عيني محدثها

إن كان من حزبها أو من أعاديها»

ومن وجهـة نظري أن لغـة العيون لا يعوّل عليهـا كثيراً،

فالعيون - كثيراً - ما تكون مخادعة، وآونة تكون لغتها صعبة لا يستطيع كل إنسان أن يفك طلاسمها.!

«أما الأرواح وتآلفها» فهو وحده ما يفسر تآلف بعض الناس وتقارب الأشخاص، وهو وحده ما يفك «لغز» ارتياحك للبعض، وعدم ارتياحك لبعضهم الآخر.!

إنه - فقط - تآلف الـــروح مع الروح .. وهذا لا يعني أن عدم ارتياحـــك لبعض الوجوه أنـــك تكرههم أو تعاديهم أو تبخســـهم حقوقهم أو يجرمنّك ذلك على عدم القسط .. هذا الإحساس معهم، يتحتم أن يتوقف عند شاطئ «عدم الارتياح لهم» فقط..

إن عدم الارتياح أمر لا يملكه الإنسان.

إنما الذي يملكه هو مالك الأرواح.. ومؤلف القلوب..!

بشاشة وجه «الموظف» خير من الندى !!

سأجعل منطلقي في هذا الموضوع هذه المقولة الحكيمة من تراثنا للحكيم «ابن خارجة»؛ لتكون نبراساً لكل موظف سواء أكان كبيراً أم صغيراً، وزيـــراً أم خفيراً، يقول ابن خارجة : «ما أحـــبُّ أن أرد أحداً في حاجة، فإن كان كريماً صنت عرضه، وإن كان لئيماً صنت عرضي منه».

والمراجـــع لكم ـ أيها الموظفـــون ـ أعلى الله مراتبكم، وهذا الدعاء، لعله أغلى دعـــاء وظيفي يتوق إليه الموظف.. المراجع إما أن يكون كريماً ســـمحاً، وهنا ليـــس أبهى من قضاء حاجته، وإراحتـــه من التردد عليكم، وحفظ وقتـــه وصيانة عرضه ـ كما قـــال ابن خارجة ـ أو يكون المراجع من النمط الآخر «أي لئيماً» وهنا يحســـن قضاء حاجته إن لم يكن لأجله فمن أجل أن يصون الموظف نفسه من أن يسلقه بلسانٍ حاد، أو يعضه بناب سام.

ثـــم اعلموا أيها الموظفون ـ رقَّاكـــم الله ولكن هذه المرة إلى الدرجـــات العلى فـــي مقعد صدق عند مليك مقتـــدر ـ اعلموا أن المراجع الذي يقف على مكاتبكم هو ذو حاجة، وصاحب الحاجة أعمى ـ كما يقول العرب ـ إنه يقف وهو في أشـــد حالاته احتياجاً لخدمتكم .. وقد يكون أمامكم أشـــعث أغبر مـــن آثار المراجعات أو الســـفر ـ لقدومه من قرية نائيـــة، أو مدينة بعيدة، ومثل هذا

المراجــع جدير بالخدمة وأهل للمســاعدة بموجب الأنظمة التي وضعت للتيســير، وليس للتعســير، ولكن بعض الموظفين لذلك غير مدركين.

أنتم - أيها الموظفون - ليس مطلوبا منكم أن تحققوا لمراجعيكم كل مــا يريدون - وإن كان ذلــك جميلاً ورائعاً .. ولكن إن لم يكن ذلــك فأكرموهم بالكلمة الطيبة، لكيلا تجمعوا عليهم إلى حشــف خيبتهم ســوء الكيل في قولكم وتعاملكم . قولــوا لهم قولاً ليناً، وامنحوهم تعاملاً حسناً .. وثقوا أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولا بوظائفكم، بل يســعهم منكم فقــط - كما قال محمد بن عبدالله -عليه الصلاة والسلام- «بسط الوجه وحسن الخلق».

وتذكروا دائماً أن بشاشــة وجه «الموظــف» - مع الاعتذار للشاعر لهذا التعديل - خير من القرى، وإن كرم وقِرى المساعدة وإنجاز المعاملات خير وأفضل من كرم المال و«المفطَّحات».!

أجمـــل هزيمـــــة ..!

 «إلى كل الأحبة الذين ضاق بـهم بـياض الورق واتـسع لهم فضاء القلب».

***

أجمـــل هزيمة، عندما تنـهزم أمـــام انتصار عواطف الآخرين وانعطاف محبتهم نحوك.

إنك مهما منحتهم لحظتها من صفاء الكلمات وصادق العرفان إلا أنك تحس - في بيادر ذاتك - أنك العاجز أمام اقتدار محبتهم .!

وأمام ذلك يجمل بك أن تقف موقف ذلك الشاعر العربي الذي عندما عجز عن مقابلة عرفان الآخرين لجأ إلى دمع عينيه، فكان تعبيرهما أصدق شكر، وأعمق تعبير:

«شكرت جميل صنعكم بدمعي
ودمع العين مقيـاس الشعـور»

وآونة يزهو شـــكرك لهم على طريقة الشاعر شكسبير الذي هتـــف لأولئك الذين غمـــروه بدفء تهانيهم علـــى نجاح إحدى مسرحياته، فكان رد جميلهم بهذه الكلمة الجميلـة: «إنني لا أجد إلا قلبـــي لأقطف لكم من ورده، ولعل ورده أكثر عبقاً من ورود الأشجار..!».

أما أبقى شـــكر فهو أن تدعو - بظهر الغيب - لكل من يمطرك

بهتان مودته ونبيل مشاعره والدعاء هو تاج الشكر وقمته.

***

لقد دارت هــذه الرؤى في فضاء ذاتي - في إحدى ســنوات عمــري - وأنا أعيش أصداء أمر ملكي شــرفت بــه، لقد أيقنت عندها أن السعادة بمشاعر الناس تعادل الفرح بهذه المناسبة إن لم تتفوق عليها.!

وكم هم رائعــون .. أولئك الذين يبتهجــون عندما يطرزون دروب الآخرين بالكلمــة «الجميلة» أو يخضبون لحظاتهم بنبيل المشاعر الزاهية.

ولكن .. آفة النجم أن يخاف الأفولا

لو عقلنا

لأدركنا أن كل مجد زائل

وكل فرح راحل

وكل عمر منتهٍ ..!

ولكنها طبيعة الإنسان الذي يتعلق بزهرة الحياة الدنيا ويتشبث بها.

إن الإنسان ـ بسبب ركضه الدائم وراء طموحه ـ قد لا يسعد في دنياه بل قد يرحل قبل أن يهنأ بما ظفر به من مال أو جاه أو منصب.

ومن قبلنا شقي «الشاعر المتنبي» عندما كبرت روحه وسمت نفسه فظل ـ كامرئ القيس ـ يطارد ملكاً أو يموت فيعذرا.

أجل لقد شقي عندما كبرت روحه فتعب جسداً، ولم يعانق الجسر الذي ترتاح أجنحة نفسه عليه.

إن العجيب في الأمر هو إيماننا أننا راحلون، وأن الأمجاد التي حصلنا عليها ونشقي أنفسنا بالحصول عليها هي أمجاد خزفية سوف ندعها وتدعنا.

ولكنها غريزة الإنسان ـ إلا من رحم الله ـ أن يتعب ويشقى ويحرص ويطمح بل ويطمع، لكنه نظام الكون الذي أبدعه الله من

أجل أن يعمر الإنسان الكون.

إن الواحد منا يستوطنه الخوف إذا ما ضج هاجس في رواق ذاته حول ذهاب ماله أو جاهه.

قد يخشى ذلك أحياناً أكثر من خشيته رحيل روحه..!

***

إن الحقيقة الناصعة قالها ذلك الشاعر في أصدق تعبير:

«كل نجم إلى الأفول ولكن

آفة النجم أن يخاف الأفولا».

إن أشـــد عذاب يواجهه الإنســـان هو خوفه أن يأفل نجمه.. ويغيب مجده..!

مـــع أن نجـــم كل إنســـان آفل لا محالـــة خـــاف أو اطمأن.. و«االكرسي» زائل حرص أم لم يحرص.

وكان عرش الحب أغلى .!

في هــذا العالم الذي غطاه رماده، وغابت عنه وروده .. نادراً ما نجد قصة، أو واقعة ذات لمحات إنســانية .. لقد أطفأت نار الحرب أنوار الحب .. وتوارت القصص السعيدة أمام جحافل الأخبار التعيسة، تلك التي تنقلها وسائل الإعلام التي جعلت العالم دارة صغيرة واحدة، تقرع أسماع ومشاعر ساكنيها كل يوم أنباء الحروب، وضحايا أحدث أنواع القنابل..!

لذا نسافر إلى التاريخ القريب أو البعيد لنقرأ الأجمل والأوفر راحة.

وهذه قصة زاهية كأوراق الورد، مريحة كهمســات الحب، وهــي غريبة فقد جعلــت رجلاً يتنازل عن أكبــر منصب بدولته العظمى.

تلك هي قصة «الأمير إدوارد الثامن» الذي تنازل عن عرش بريطانيا من أجل عيني امرأة أحبها.. رأى أن عرش الحب أجمل وأكثر راحة من كل عروش الدنيا .. ولم يتنازل فقط عن «العرش الملكي» بل اضطر إلــى أن يبتعد عن وطنه إلى المنفى .. ولكنه كان أجمل منفى .

«وإلى سمبســون» وتعني : سحر - « سمبسون » هي هذه المرأة التي جعلت ولي عهد بريطانيا «إدوارد» يتنازل عن عرش

بريطانيا عام ١٩٣٦م .. عندما رفضت التقاليد البريطانية الملكية أن يتزوج من هذه المرأة المطلقة، وهو الذي سيكون ملك بريطانيا القادم .. لكنه تنازل عن الملك .. واختار أريكة عيني تلك المرأة.. لقد ناداه دفء عينيها .. ورأى عرش الملك يتلاشـــى أمام عرش هذه المرأة .. ولِمَ لا؟

إن المـــرأة الأُنثى قد تمنحك ســعادة لا تجلبها لك كل مناصب الدنيا وأموالها وقصورها.

إن ثراء عاطفتها التي تغدقـــه على رجل تحبه هو أعظم من ثراء الملايين الجامدة .. إن دفء مشاعرها يطرد صقيعاً يستوطن أفخم القصور..!

هـــذه المرأة «سمبســـون» التي أحبهـــا « إدوارد »، والتي ختمت رواية حبها بوفاتها في باريس بعد أن عاشـــت ٨٩ عاماً ثرا بالوفاء، كانت - حقاً - من أوفى الناس، لقد منحت ذلك الرجل الذي باع الدنيا من أجل قلبها .. منحته كل الحب والوفاء والدفء.. لقـــد عوضته عن مجد الملك بمجد حبها .. وأســـكنته خافقها بعد أن رفض قصور الرخام .. لقد عاش معها أجمل ســـنوات عمره وأزهاها .. ولو اختار عرش بريطانيا العظمى لقضت عليه هموم السياسة، وأدواء الحروب..!!

لقد شـــنت الأقلام عليه في بريطانيـــا - آنذاك - حملة عنيفة، عندما تنازل عن عرش الإمبراطورية البريطانية، من أجل غرامه

بامرأة مطلقـــة .. ولكنه لم يأبه، ورضـــي بالمنفى، فغادر وطنه بريطانيـــا إلى باريس ليتزوج الســـيدة «سمبســـون» وإذا كانت بريطانيـــا ـ كما قال أحد الكتَّاب الإنجليـــز ـ قد رفضت أن يعيش الأمير إدوارد بعد زواجه بالســـيدة « سمبســـون » على أرضها فقد اســـتقبلت هذه المرأة لتدفن إلى جانب زوجها «إدوارد» في مقبرة القصر الملكي لتكون بجانبه بعد وفاتها، كما كانت حميمة له أثناء حياتهما.

قصة غريبة تذكّرك بقصة المجنون وليلى، وروميو وجولييت.. فقط هـــذه القصة تمت في العصر الحديث، وانتهت بالزواج، ولم تكن مجرد خيالات محبين..!

إن الحـــب «التضحية» لـــم يمت حتى بين غابات الأســـمنت وتـــروس الآلة .. إن صوته قد يبدو هامســـاً، ولكنه قد يكون في «همسه» أقوى من الدنيا بكل ضجيجها..!

وليس سوى صنع الجميل فضيلة

إضاءة تراثية:

ضاق وزير المأمون الحسن بن سهل بكثرة حوائجِ النّاس فقال لأحد جلسائه «ثمامة الحنفي»: « يا ثمامة لقد ضقتُ بطلاب الحاجــات، فقال له ثمامة: زلْ عن موضعــك وأنا ضمين لك بألا يأتيك أحد، فقال الحسن: أما هذه فلا، وظل يجلس للناس ويقضي حوائجهم ».

***

الذين يستمتعون بمروءة خدمة الناس هم الأوفر بهجة في هذه الحياة .. إنهم يتلذذون بها، ولا يتذمرون منها حامدين المنعم أن جعل لهم لا إليهم عند النّاس حاجات، أما الذين يضيقون بقضاء حوائج الناس فهم الذين يشقون بأعمالهم ولا يسعدون بها.

العطــاء للناس قد يجيء عبر « كلمة جميلة » نمدّ من خلالها ســجادة الفرح في حدائق قلوبهم، وقد يكــون من خلال « خدمة بسيطة » نقدمها لمن يطلبها منا أو لمن يحتاج إليها بنفس متوشّحة بالشهامة وبوجه مضيء بالنبل، وبقدر ما يبتهج المتلقي لها فإن مانح العطاء هو الآخر يســعد بها، ويظل أثــر قضائها متألقاً في حياة مانح العطاء عبر «ارتياح» يســكن وديان نفسه، أو عبر « حاجة » قد يقضيها له في قادم الأيام شهم مثله، أو من خلال عبق « ذكرى طيبــة » يبقيها لأولاده وأحفاده عندما يغادر هذه الدنيا، وقد قال حليم العرب الأحنف بن قيس : «ما ترك الآباء للأبناء مثل تطويق أعناق الآخرين بالمعروف» أما الأثر الأبقى والأهم من كل ذلك «دعوة صادقة» تنبع من قلب سرّته هذه الخدمة في جنح ليل فتثمر أجراً مدخراً لمانح العطاء.

ومــا أبلغ وأصدق ما أوردته كتب التاريخ في ســيرة «يحيى

البرمكي - وزير هارون الرشـــيد» الذي كان يحسن إلى التابعي الجليل سفيان بن عيينه، وكان سفيان يردد في سجوده بعد وفاة يحيي البرمكي: «اللهم إن يحيــى كفاني أمر دنياي، فاكفه اللهم أمر آخرته»، وقد رأى أحــد الزاهدين يحيى بعد وفاته، وإذا هو ســعيد مبتسم فسأله ماذا فعل الله بك ؟ فرد عليه : «لقد غفر الله لي بدعوة سفيان بن عيينه».

***

●● إن حقيقـــة: أن من يفعل الخيــر لا يعدم جوازيه أضحت رؤية أمام الأبصار.

وليس مجرد رواية تدونها الأخبار، لقد رأينا وسمعنا وعايشنا من الوقائع والقصص شواهد تثبت هذه الحقيقة - واقعاً لا خيالاً-، إن أنهــار المروءة والنبل وجداول الشــهامة التــي يغدقها ذلك الشهم أو هذا الكريم على الآخرين قد تكون ثمارها: ثواباً وفاقاً، فيتهادى جزاء ذلك المعروف بالدنيا قبل الأخرى.

وأورد هنا قصة حصلت لي شــخصياً قبل سنوات بعيدة.. لقد كنت مســافراً من الريــاض إلى القصيم وبعــد أنِ تجاوزت ثلث الطريق، وكان الوقت حوالي الســاعة الثامنة ليلا وإذا بي أرى صاحب سيارة «جمس» واقفاً يؤشر بيده، وحوله عائلته وأطفاله، فمــا كان مني إلا أن وقفت عنده وإذا به يأتي إلي مســرعاً طالباً مساعدتي بسبب تعطل عجلة سيارته الأمامية، وعجلة الاحتياط لديه معطلة، فحملنا عجلة ســيارته وركب معي وعائلته وذهبنا إلى محطة وقود لإصلاحها، وكانت أقرب محطة بحدود عشــرين كيلاً، وتم إصلاحها ثم أعدته إلى ســيارته، وقمنا بتركيب العجلة .. ثــم ذهب كل منا في ســبيله .. وبعد حوالي الســاعة إلا ربعاً رأيت سيارتي أو «راحلتي الحديدية» -كما يسميها العقاد- ترتفع حرارتها بشكل كبير، فتوقفت لأنظر سبب ذلك وإذا بالسير منقطع

وعندها أســقط في يدي.. ولكن لم تمض سوى دقائق لم تزد عن العشر، إلا وصاحب تلك السيارة الذي أنجدته في مشكلة سيارته يقف عندي على الفور سائلا ومبديا مساعدته لي، وأخبرته بعطل ســيارتي فطلب مني - وهو سعيد - أن أركب معه لنأتي «بسير» جديد .. فذهبت معه واحتجنــا أن ندخل إلى إحدى المدن القريبة من الطريق الســريع لنحصل على « الســير » المطلوب، وعدنا لسيارتي وقمنا بتركيبه فسار وسرت في طريقنا بسلامة الله.

ســبحان الله.. في ليلة واحدة وفي مكان واحد، وفي مشــكلة واحدة حصل هذا الموقف: معروف متواضع مني أنال ثوابه بعد أقل من ســاعة، حقاً إن من يفعل الخيــر لا يعدم جوازيه دنيا أو أخرى، وما أصدق الشــاعر عمران العمــران عندما إختزل أثر المعروف وصنع الجميل في هذا البيت الأخاذ:

«وليس سوى صنع الجميل فضيلة
وليس سوى الذكرى تظلّ وتخصــــب»

***

●● أما قبل:

فكمــا بدأت هــذا الموضوع بإضاءة تراثية أختمه بإشــراقة تراثية بهية كضوء القمر، جميلة كوجه المعروف . روى الأديب الجاحظ في كتابــه : « البيان والتبيين» هــذه القصة المعبرة : «رأيت رجلا يروح ويغدو في حوائج الناس، فقلت له : لقد أتعبت بدنــك فما لك راحة، فقال لي : لقد ســمعت تغريد الأطيار وغناء الجواري الحســان، فما طربت لشــيء منها طربي لنغمة شاكر أوليته معروفاً، أو سعيت له في حاجة ».

لقد صدق هذا الشهم.

ما أسعد من تقضي على يده للناس حاجات.

جعلنا الله جميعاً مفاتيح للخير مغاليق للشر.

كم نظلم الزوجة الثانية ..!

روى لي صديق عزيز موقفاً شــهماً لزوجة ثانية وقفت مــع زوجها ومع زوجته الأولى، يقــول الصديق : عندما تزوج زوج قريبتي للمرة الثانية انصرف عن قريبتي «زوجته الأولى» وألحــق بها الظلم إهمالاً لها وتقصيــراً في حقها، وبخاصة عدم تخصيــص ليلة خاصة بهــا، مما أثر عليها كثيــراً لكن الموقف النبيل أن زوجته الثانية ـ وهي امرأة عاقلة ذات تجربة من زواج ســابق ـ لم ترض بتصرف زوجها وظلمه للأولى منذ أول شهر من زواجها فظلت تلح عليه وتطلب منه وتذكره بالخوف من الله في تقصيره بحق زوجته الأولى، مع أن بعض الزوجات يرضين أو قد يسعدن بذلك على أساس أنها هي المحظية لديه وأنه لا ذنب ولا مســؤولية عليها في ذلك، لكن هذه الزوجة « غير..! » فلم ترض بذلك بل عندمــا رأت أن الزوج لم يأخذ بنصيحتها ما كان منها ـ في موقف شهامة ونبل آخر ـ إلا أن ذهبت إلى «زميلتها» ـ ولا أقول ضرتها ـ «زوجة زوجها الأولى»، وأخبرتها بما عملته من أجل عدل زوجها لتبرئة ذمتها من ناحية، ولإزالة اللبس الذي قد يكون دار في ذهن الزوجة الأولى من أن تكون هي السبب في تصرف وظلم زوجهــا.. نعم لقد فعلت ذلك، وكان وقع هذا العمل الشــهم كبيراً من خلال ارتياح وتخفيف بعض الألم عن الزوجة الأولى، وقد أصبحتا صديقتين، وسعتا معاً إلي إدخال طرف ثالث ـ بعدمــا تبين موقف الزوجة الثانيــة ـ، وقد نجح تدخل الطرف

الثالــث ـ بتعاون الزوجة الثانيــة ـ في عدل الزوج وعودته عن جنفه وظلمه لزوجته الأولى.

●● أروي هـذه القصة الواقعية التي تشـير إلى عدة حقائق منها:

أولاً: أن المرأة ليســت دائماً عاطفية فقط، بل إن المرأة ـ أو أغلب النســاء ـ يحكمن ضمائرهن، ويخشـين الله، فهذه المرأة «الزوجة الثانية» لم تنْـسق وراء عاطفتها وترحب بميل زوجها إليها ولـم تر أن نيلها حقوقها يتقاطع مـع نيل الزوجة الأخرى حقوقها، بل كانت رائعة في موقفها وكبيرة في مساعيها.

ثانيا: أغلب أفــراد المجتمع ـ مع الأســف ـ يظلم «الزوجة الثانية» مع أن فيهن بل كثير منهن ـ على شــاكلة الزوجة التي رويت قصتها ـ والغالب أن الظلم أو ســببه لا يقع منها بل يكون ذلك ـ في الأعم ـ من الرجل صاحب العقل لا العاطفة .، والزوجة الثانية قــد تخفق مع زوجها في تعديل أخطائه لأنها تظل الطرف الأضعف.

ثالثا وأخيرا: إن على أفراد المجتمع كله ـ سواء أكانوا أقارب أم جيرانــاً أم أصدقاء، أم نســاء أم رجالاً ـ أن يســعوا إلى رفع الظلم عندما يرونه ســواء على الأولى أو الثانية ,إن كان الأغلب أنه يقع على الزوجة الأولى وأولادها.. وهو أعظم وأقســى ظلم، وبقاء هذا الظلم على أولادها تتولد عنه العديد من النتائج السلبية الوخيمة اجتماعياً وأسرياً، وقد لا يدرك بعض الرجال.

رسالة إلى الأطباء

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة ..!!

عزيزي الطبيب:

اعلـــم ـ يا رعاك الله ـ أن المريض عندما يأتي إليك فإنه يأتي وهو في أشد حالاته ضعفاً، وإن كان في صحته أقوى من الجبال الراسيات.. واعلم أنه لو كان أفصح الناس لساناً فإنه عندما ينام على «السرير الأبيض» يكون وقتها أعيا من «باقل»..!

مـــن هنا أدعوك ـ أيها الطبيب ـ أن تحنو على مريضك، وأن تقدر وضعه وحاله .. وقمة «الرعاية» له أن تصغي ســـمعك إليه ليحدثك عن مرضه، ويكشـــف لك عن آلامـــه.. وفي هذا نفع له، واختصار لجهدك ووقتك..

ليتك ـ أيها الطبيب ـ وقيت من كل مكروه ـ تدرك مدى ارتياح المريض الذي يسكن جسده التعب عندما يحس أنه فاض لك بكل ما يؤلمـــه، وأفاض عليك بكل ما تختزنه مشـــاعره، وبما يقض مضجعه.

إن ذلك ـ أيها الأطباء ـ هو بداية الشفاء ولا أقول التشخيص، فالإفصاح عن الشـــكوى إلى ذي مـــروءة، وأنتم ـ أيها الأطباء ـ يفترض أن تكونوا في قمة المروءة وأنتم ـ بحول الله ـ كذلك، هذا الإفصاح هو بداية الشفاء .. أو ـ على الأقل ـ نهاية الشكوى.!!

وثــق ـ أيها الطبيب زادك الله نطاســة ومعرفــة ـ أن الراقد بيــن يديك، المتطلع ـ بهلــع ـ إلى عينيك، الخائف مما ســوف تسمع أذناه. لا يرغب في الكلام لمجرد الكلام ولا الشكوى لمجرد الشــكوى.. بل لعل الحديث يشق عليه، بل لعلـه لا يريـد أن يبوح بما بين جنبيه ولكن القضية كما قال الشاعر الحكيم..

«وما الشكوى لمثلي عـــادة

ولكن تفيض النفس عند امتلائـها»

لـــذا ـ أيها الطبيـــب ـ كن ـ يا رعاك الله ـ أوســع صدراً، لا تضايقــك ثرثرة المريض، فهــو إنما يبوح لك بمــا في خافقه، ويكشف لك عن أسباب ألمه.. وأنت باستماعك إليه تريحه، تفقه شكواه، ولعل شفاءه يتم على يديـك فتنال الأجرة والأجر.. أجرة الدنيا من الحطام، والأجر من الله في دار المقام.

وقبل ذلك وبعده:

لنتذكر ـ جميعــاً: الأطباء وغيرهم ـ قــول مقدر الأمراض، وواهب الصحة للبشر: «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » ســورة يونس آيــة ١٠٧. عندئذ تطمئن النفوس، ويشرق الأمل في القلوب.

وقانا الله وإياك الأمراض والسقام، وكتب لنا ولكم أيها الأطباء صحة النفوس وعافية الأجسام.

عسكريون ولكنهم مرهفو المشاعر..!

لدى البعض انطباع عن (العسكريين) أنهم ذو مشاعر بعيدة عن الرقة، وبمنأى عن عشقِ الكلمة الشعرية!.

والحق أن هذا ليس حقاً!.

فلو أستعرضنا تاريخ الأدب العربي لوجدنا عددا من العسكريين شعراء وأدباء مبدعين في الكلمة الجميلة وهم يحملون أعلى الرتب العسكرية.

وفي بلادنا أعرف ـ كما تعرفون مثلي ـ أسماء عسكرية كثيرة يفيض تعاملها باللطف وبعضهم له عطاءاتهم الشعرية والنثرية البهية.

وعلى مستوى الصداقة والزمالة والتعامل تجد العسكريين فيهم الوفاء، والسماحة والسجايا الرفيعة كإخوانهم المدنيين وإذا ما شذ فرد فلا يحكم على المجموع، والشذوذ عن الخلق الكريم يحصل في الكل «مدنيين وعسكريين».

***

وفي عالم الكلمة الجميلة والشعر العذب ها هو صديق وزميل عسكري له عشرات القصائد والمقالات التي تنبض رقة، فضلا عن تعامله الراقي، ذلكم هو الصديق اللواء عبدالقادر كمال ـ الزميل بمجلس الشورى سابقاً، وكم يسعدني وهو يتحفني بين آونة وأخرى بالأرقّ من قصائده وكلماته!.

وآخر نفحاته «الطازجة» قصيدة فيها وهج الحب، وتوهّج الرومانسية، وعفة المحب، وقد بعثها إليّ عبر ورقة «زنبقة» وليس من خلال فوّهة «بندقية»:

«لا لستُ أوّل من أحب بلا أمل
كم دون جني الشهد من إبر النّحلْ
الدلُّ طبعٌ للنساء وعادةٌ
والحسن يكّمن في التدلّل والخجلْ

أنا يا مليـــحةُ عاشـــق ومتيم
وطبيعتي أنّي أعيش على أملْ
أفدي النواعسٍ كم أصْبن حِشاشتي
ومراشفاً.. لو كانٍ تٍسمحُ بالْقبلْ..!
هذي أماني.. والأماني خُلّبٌ
من قال تقتربُ الثريا من زحلُ
استغفر الله العظيم لزلّتي
فالشعر قولٌ لا يُصدَّقُ بالعملْ»

***

●● وأختم لأرسّـــخ ما أشـــرت إليه آنفاً من كريمِ الأخلاق ورقة التعامل لدى العســـكريين سواء كانوا ضباطاً أو أفراداً بقصة عشتها مع جندي فاضل وليس مع عســـكري ذي مرتبة كبيرة.. تكشـــف عن ســـماحة بالتعامل رغم صعوبة عمل العسكريين في الشوارع وعلى المنافذ في صقيع البرد وتحت لهيب الشمس بل وخطورة عملهم على سلامة أرواحهم: لقد كنت ذات مساء أقطع أحد شوارع الرياض وأشار لي بيده جندي بالشارع لكي أتوقف وتوقفت للحظات لم يتجاوز وقتها الســـلام منه ثم الرد مني ثم قال بأسلوبٍ حميم وبلغة راقية: «تفضّل يـــا الغالي»: وأجزم أن هذا ليـــس خاصا بي فهو -وقتها- لا يعرفني، لأن مهمته إيقاف ســـيارات معينة، أو أشـــخاص محددين، ويفترض ألا أضيق أنا ولا غيري لو أوقفنا للحظات للسؤال والاطمئنان ، فهذا الإيقاف من أجلنا ومن أجل سلامتنا وأمن وطننا وأطفالنا.

لقدٍ توشـــحت بالارتياح من هذا الموقف فهو يؤكد ما أشرت إليه ســـلفاً من كون العسكري هو مثل أخيه المدني في رقي التعامل إلا ما شذ، والآحاد لا يحكم بها على الكل.

●● ورد الختـــام: باقـــات امتنان لأولئك الذيـــن ينذرون زهرات عمرهم لزرع الأمن وحراســـة الحدود والرباط بميدان الشرف ليبقى مثمراً كنخيله، مضيئاً كمناراته، ســـعيداً كابتسامات أطفاله. و: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا».

حنين لعيون منزل قديم ..!!

لقد كنت أظن الوفاء لا يكون إلا للإنسان وللأوطان، وأن لا يكون لشيء آخر فذلك لم يدر بجوانحي !

لكن عشت إحساس الوفاء لشيء غير الإنسان وغير الوطن، ذلـــك عندما قدر لي الانتقال مـــن منزلي القديم إلى منزل آخر في حي آخر.

●● لقد أحسســـت بالحنين إلى ذلك المنزل الذي ألفته، ولعله ألفني طوال السنوات الماضية، وأحسب أنه سعد وسعدت به من منطلق أن البقاع تشقى وتسعد - كما قال «الفاروق عمر» -.

●● لقـــد آمنت - من خـــلال هذه التجربـــة «الانتقالية» - أن الوفاء كما هو للإنسان يكون «للحجر» أيضاً.

إنني أمرُّ أحياناً بمنزلي القديم وأكاد أُقبِّل ذا الجدار وذا الجدار ولكن ليس عن عشق - كقيس وليلى - إنما عن بقية وفاء!!

والوفاء لا يتجزأ ســـواء كانت بوصلة الوفاء حجراً أو إنساناً أو جماداً .

●● لقـــد تيقنت بعد هذه التجربة أن الإنســـان عندما يغادر المكان فإنه لا يفقد التراب والجدران.

إنه يغادر أولئك الأحبة الذين أَنِس بهم، والجيران الذين سعد بصحبتهم.

ومن هنا تجيء لوعة الانتقال من دار إلى دار!.

وكم هــي قصة جار الإمام «الحســن البصري» - رضي الله عنــه- رائعة ومؤثرة، عندما أراد جــاره أن يبيع بيته فوضع له ســعراً «بعشــرة آلاف درهم» فقال له الناس: إن سعر دارك لا يتجاوز «خمسة آلاف درهم». فرد عليهم رداً بليغاً قائلاً: «قيمة البيت خمسة آلاف وجيرة الحسن البصري خمسة آلاف»!.

ولما علم الإمام الحســن البصري، اســتبقاه وأعطاه خمسة آلاف درهم ليبقى مجاوراً له.

وبعد:

تلك هي الحيــاة «انتقال من دار إلى دار» ونقلة من حال إلى حــال، ومن زمان إلى زمان .. ولكن يظل لبعض الأمكنة تميزها، ولبعض الساعات عذوبتها ..!

ويبقى الانتقال الأهم من الدار الدنيا إلى دار النعيم بالأخرى، نقلنا الله جميعاً إليها!.

ويا أيها الوفاء

ما أنداك «غيمةً» تُمطر على القلوب دفئاً.

وما أبهاك «نغمةً» تنسكب على ثنايا العمر أَرَيجاً.

أطفئ الإنترنت..واستمتع بالحياة

في ألمانيا تقوم حملة توعية تنهض بها مؤسسة اجتماعية كبيرة عنوانها: "أطفئ الإنترنت واستمتع بالحياة" ولو لمدة ٢٤ ساعة على غرار حملة ناجحة سبق أن قامت بها مؤسسة اجتماعية في بريطانيا قبل عدة سنوات كان عنوانها: "أطفئ التلفاز واستمتع بالحياة ليوم واحد"، وأذكر أن مجلة "المعرفة" قامت باستطلاع لدينا حول رأي الناس في هذه الحملة، واتفق الذين أجابوا على السؤال من رجال ونساء على أنهم شعروا بعد إغلاقهم التلفزيون ليوم وليلة بالهدوء في بيوتهم وأنهم وأطفالهم صاروا أقل عصبية، وأنهم ركَّزوا وتعلَّموا وتوجَّهوا إلى أمور أخرى جميلة.

ترى ما هي المحصلة لو أن الناس استجابوا لحملة: "أطفئ الإنترنت" بكافة فضاءاته من مواقع تواصل وإيميلات ومدونات ويوتيوب وبقية أفراد "العائلة الإنترنتية"!.

أجزم لو استجاب الناس لهذه الحملة التي تمت في ألمانيا ولقيت تجاوباً ونجاحاً، فإن المحصلة ستكون حصاداً مثمراً وصيِّبا

نافعاً أولها: التفاف الأســر على بعضها، والتقاؤهم في الأوقات الأســرية، عودة الناس إلى تواصلهــم "صلة رحمهم"، هدوء الأعصاب التي يجافيها الإنترنت وما يُضخ فيه من أمور تزعج ولا تريــح، تركيز الأطفال على صحتهــم وغذائهم، وواجباتهم المدرسية، وأخيراً الارتياح من الجدل غير المجدي بل المزعج، وتلوث السمع والعقل والبصر بقراءة الشتائم والسباب.

● المشكلة هنا من يستطيع أن ينعزل عن العالم؟

أجيب: يستطيع من يريد أن يظفر بالراحة، فهل نجرب لننعم بالطمأنينة ولو لساعات محدودة.

ترى من يعلق الجرس ويبدأ هذه التجربة، أعتقد أنها ستكون عذبة عذوبة جمال ليلة هادئة بين كثبان الرمل تحت ضوء القمر وزخات المطر!.

ما رأيكم؟

المرأة السعودية
من «هودج» الناقة إلى «روب» الجامعة

كل يوم تثبت بلادنا أنها قادرة على أن تصل إلى قمم التطور، ويتبوأ أبناؤها وبناتها مقاعدهم في منظومة التنمية وقطار النماء دون أن يتنازلوا أو يتنازلن عن تعاليم ديننا الخالدة، وقيم بلادنا الأصيلة، إن أخذ قيادة بلادنا «بالحل الإسلامي بوجهه التسامحي المستنير» لمعالجة متغيرات العصر الاجتماعية أثبت - بفضل الله - نجاحه وتفوقه حتى أصبح الزائر لبلادنا ينظر - باعتزاز - كيف تحولت هذه الصحراء إلى واحة خضراء، وورشة نماء، وكيف بلغ أبناؤها وبناتها أعلى مستويات المعرفة والقدرة على العطاء في وطن تتعانق فيه - بانسجام رائع - ركائز الروح ومطالب المادة.

وأمامنا الآن تجربة تعليم وعمل المرأة في بلادنا، فقد راهن الكثيرون على فشلها في بداياتها دون اختلاط بين الجنسين، ولكن ها هي الأيام والسنون تثبت لهذه التجربة نجاحاً متميزاً، فالمرأة لدينا تعلمت وعملت في كل المجالات وفق تعاليم عقيدتها وقيم بلدها، وأصبحت مواطنة صالحة «عاملة ومتعلمة» دون أن تتنازل عن أي قيمة نعتز بها، أو شيمة أصيلة نفخر بها.

وكم نحن سعداء، ونحن نرى «المرأة السعودية» بحجابها تذهب إلى المدرسة والمستشفى والدائرة والشركة بكل احتشام

وحياء.

وكم نحن مبتهجون ونحن نشاهد هذه المرأة وهي تسعى إلى جامعتها ومقر عملها - بكل تقدير واحترام.

إن نجاح تجربة تعليم المرأة لدينا، أنموذج مضيء ونادر فقد استطاعت أن ترتوي من مناهل العلم مع محافظتها على أخلاقها وشيمها ومكانتها.

ولهـذا فقد نالت المملكة ممثلة بـ «جهاز تعليم البنات» قبل سنوات جائزة منظمة «اليونسكو» «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على منجزها في ميدان محو أمية المرأة»، إن تمسك «المرأة السعودية» بحجابها لم يحجبها أو يمنعها عن النجاح والتألق في كل ميادين الحياة، بل وتفوقها حتى على أخيها الرجل في بعض الأحيان.

لقد نجحنا في مسألة تعليم الطالبات وفق خصوصية مجتمعنا في الوقت الذي يدعو فيه الآن عدد من علماء التربية في الغرب إلى الفصل بين الجنسين في مقاعد الدراسة بالإعدادي والثانوي والجامعي لما نتج من اختلاط الطلاب والطالبات لديهم من آثار سلبية.

لقد حث الرئيس الأمريكي جورج بوش الأسبق على الفصل بين البنين والبنات في المدارس، وأكد على أن الحكومة الأمريكية تشجع عدم الاختلاط بل ووعد وقتها بمنح تمويل أكثر للمدارس التي تود الفصل بين الجنسين، ومن المؤكد أن رئيس أكبر دولة

متحضرة فـــي العالم لم يدع إلى عدم الاختلاط وتشـــجيع الفصل بينهم إلا لما رأته حكومته من السلبيات والأضرار الأخلاقية.

وقد أصدرت «اليابان» مؤخراً قراراً بتشغيل قطارات خاصة بالنساء لما رأت من مساوئ الاختلاط في القطارات.

أنقل هنا معلومـــات موثقة أثبتها مســـؤول اقتصادي ورجل أعمال ســـعودي مـــن منطلق واقعي وليس مـــن موقع تنظيري، ذلك هو أ. عبدالرحمن الجريســـي حيث كشف عن نيل وحصول المـــرأة الســـعودية على مميزات لم تنلها بنات جنســـها في عدد من الدول المتقدمة، يقول أ. الجريســـي في إجابة موثقة بالأرقام ومدعمة بالحقائق عن سؤال حول دور المرأة السعودية اليوم في المنظومة الحياتية والاقتصاديـــة في المملكة، وذلك في صحيفة «الوطن» الســـعودية: «للمرأة الســـعودية في المملكة العربية الســـعودية أدوار كبيـــرة ومماثلة للرجل، فهي على المســـتوى العملي تشكل أكثر من ٣٥٪ من موظفي الدولة، بينما لم تبلغ هذا الرقم في كثيرمن بلدان العالم، وعلى المســـتوى التعليمي تشكل ٥٢٪ من نســـبة طلبة المدارس، والمرأة السعودية تحصل على راتب يوازي راتب الرجل، بينما في أوروبا وأمريكا لا تحصل إلا على ٥٠٪ من راتب الرجل، والمرأة الســـعودية تملك ٧٠٪ من مدخـــرات المصارف مع أن الرجل في بلادنا هو المســـؤول عن النفقة على المرأة»، ويضيف رجل الأعمال: «للمرأة الســـعودية دور كبير في المنجز الاقتصادي، وقد تم تشـــكيل مجلس تنفيذي

نسائي للعناية بنشاطات ومســاهمات المرأة السعودية التجارية والصناعية والعقارية والاقتصادية بشكل عام».

***

إن المرأة الســعودية تحتفظ بهويتها عندما تتزوج فيبقى لها اســمها وأملاكها ونســبها وهويتها ولا يتغير اسمها كلما تبدل زوجها، وكأنها قطعة أرض تنتقل من مالك إلى مالك آخر كما هو الحال في كثير من دول العالم الغربي.

هذه هي تجربــة المرأة لدينا في تعلمها وعملها تبدو مضيئة أمام من راهن على فشلها، أو راهن على عدم إمكانية تطبيقها.

يبقى لمزيد من نجاح هذه التجربة ولرسوخها وعدم تعرضها لهزة تؤثر على معادلة نجاحها : التجاوب والتفاعل مع متغيرات العصر الســريعة والتحديات الجديدة بحيــث نتعامل وننمي هذه التجربة بانفتاح لا يمس الثوابت، وفي الوقت ذاته يوسع هامش مجالات عمل المرأة، وألا نجعل المســائل الفقهية الخلافية سبباً في عدم تقدم هذه التجربــة المضيئة أو توقفها أو إجهاضها من هنا فإنه مطلوب ـ من أجل اســتمرار نجاح هذه التجربة ـ المزيد من مشــاركة المرأة في منظومة العطاء والتنمية في هذا الوطن لنقدم للعالم أنموذج المرأة المســلمة العاملــة والملتزمة بدينها بوجهه المستنير الصالح لكل زمان ولكل مكان.

مرافئ وطنيـة

***

«قيل لأعرابية: أتشـــتاقين لأرضك؟ قالت : كيف لا أشتاق لرمله كنت جنين ركامها، وضيع غمامها».

***

«هنا عطر أمي : ريحها وبخورها
وكل حكاياهـــا تداعبني هنا
هنا نبضـــات نائمـــات بأضلعـــي
هنا ذكريات العمر أحيا بها أنا»

«الشاعر: عبدالعزيز الذكير»

***

«يا أيها الوطن الموشوم في كبدي
يضيء وجهك والأحداق تشتعل
هذا التوهــج فــي عينيـك يأسرنـي
في كل هدب من الأهداب أنغزل»

« الشاعر: علي صيقل»

وهل لعينيك إلا الحب يا وطني !

عندما أدخل إلى «بهو عينيك» يا وطني
أستشعر الأمان بك ومعك
أتباهي بك طهارةٍ وحضارةٍ
أتماهى معك كياناً وإنساناً وتراباً
وأنت تنتصر على أعدائك «الأبعدين والأقربين» الذين يبيّـتون لك ولنا ما لا ترضى ولا نرضى من القول والفعل!
وكم تستوطن السكينة وديان جوارحي
وأنت تهـزِم مناوئيكٍ «الأدنين» الذيـن أرادوا أن يختطفوك إيمانـاً ومحبة وسـماحة وأماناً .. فكانوا هم الأخسـرين أعمالاً وآمالاً!

«أيهذا» الوطن ياحادي قوافل المحبة .. يشاغبك بعض بنيك فتسامحهم.

يقسـو عليك بعض فلذات أرضك لكنك تحتويهم بكل أطيافهم، وكافة طوائفهم.

« أيهذا » الوطن هل يوجد وطن في الدنيا مثلك يحتضن خير البقاع، ويضم أقدس الأماكن، وتحت ترابه جسد الحبيب!

أنك لسـت «ملاذنـا الآمن» لوحدنـا .. بل أنـت «بحرميك الأطهرين» ملاذ كل إنسـان يتهادى في قلبـه نهر الإيمان دافئاً كحضن الأم .. مضيئاً كوهج الإيمان.

انظر إلينـا ـ أيها ـ أيهذا الوطن الأغلى .. تجدك تسكن ما بين الحدقة والحدقة .. ما بين العين والحاجبِ .. ما بين القلب والنياط.
نحبك ـ أيهذا الوطن ـ نشيداً ونشيجاً .. فعندما تكون «نشيداً»

تكون النغم الأزهى على شـفاهنا .. وعندما تكون «نشيجاً» -لا أراك الله مكروها- تكون الأكبر من كل أشجاننا.

نحن منك ولك .. في الرخاء والشـدة .. فـي توهج الجمر.. وتألق عطر الورد!!

إن وفاءنـا لك ليس وفاء « هوية » فقط ولكنه انتماء لك.. و «هوى» يسكن مشاعرنا كما استوطن حبك غرف قلوبنا.

نزهـو بك .. نماء ومكتسـبات حضاريـة .. ونعتز بك رخاء وأمنا.. نفاخر فيك مبادئ ثابتة.. ومواقف شامخة.

أيهذا الوطن لا أجد سـوى تلك المعزوفة ترنم بها أحد أبنائك الشاعر الكبير: سعد البواردي:-

«أحبك يا أرضي ولست بخيرهـا
ففي غيرك الأنهار والخصب والفنن
ولكنك الأغلـى فأنـت حبيبتـي
وأنت لي التاريـخ والأهل والوطـن
ومن يعشق التاريخ أرضاً وموطناً
يبيـح ربيع الأرض لو انه الثمـن»

«وحده» الوطن الذي يؤويك عندما تنفيك الأوطان.

«وحده» الوطن الذي ينصفك عندما يظلمك الآخرون .

«وحده» الوطـن الذي يظلّك بالـدفء عندما يضنيك صقيع الاغتراب.

هـل لعينيك بعد كل هـذا العطاء إلا الحب يـا وطني كما قال شاعرك العاشق لك «علي صيقل».

حفظك الله - وطني - دوحة أمن، وواحة إيمان، وباحة رخاء.

مكة المكرمة
نهار من رحمة وأنهار من سكينة .!
=١=

من أين أبدأ قصة الحب الزاهية؟

عفـــواً.. هل هي منتهية حتى أبدأهـــا .. وهل هي غائبة حتى أحضرها.. وهل هي بعيدة حتى أدنيها ؟

«مكـة المكرمـة»

في وجداني ووجدان كل مســلم قصة وجــد لا تموت.. وهي بيـــن جوانحي وجوانح كل مؤمن جنـــاح عز لا يهون، وهي بين أضلعـــي عطر يتضوع نفحاً روحانياً أطفـــئ به لهب الخوف في نفسي وأستاف منه عبق الطمأنينة في حياتي.

«غرامك في روحي وذكرك في فمي
وذكراك في قلبـــي فأين تغيبـــي»

•• ما صافحت عيناي جبال مكة المكرمة
وما وطئت قدماي ثراها الطاهر
وما تكحَّلت عيناي بمرأى الكعبة المشرفة

إلا وتذكـــرت قصـــة صديق عزيز عليَّ يســـكن مكة منذ أكثر من عشـــرين عاماً ولا يرضى بها بدلاً، أو عنها حِولاً .. لقد كان قبل ســـنوات مستحقاً للترقية إلى مرتبة أعلى من مرتبته، وامتد التواصل بيني وبينه لمســـاعدته في موضوع ترقيته .. وفعلا هيأ

الله وتمـــت ترقيته إلى المرتبة الأعلى، ولكن كان مقرها الرياض بـــدلاً من مكة المكرمة، عندها رفض الترقية وتنازل عن المرتبة مؤكداً أنه لا يعادل البقاء في مكة الحصول على كل مراتب الدنيا ووظائفها، وقد لمته وقتها مؤكداً أن هذه فرصة ما كان ينبغي له تضييعها، ولكنه أصر علـــى تنازله وبقائه على مرتبته الأقل في مكة المكرمة، وطرح عليّ أسئلة مؤثرة وهو يحاورني ويقنعني بوجهـــة نظره قائلاً : هل لديكم في الريـــاض «حرم» أذهب إليه كلما ظمئت نفسي إلى لحظات ارتياح وسكينة وسلام داخلي ؟.

هل ثواب العمل الصالح من صلاة وصيام يضاعف لديكم كما هو في أم القرى؟

هل عندما تضيق النفس بتبعات الحياة الدنيا ومتاعبها، وجور أقـــوال الناس وجائـــر تعاملهم فيها .. هل هنـــاك مكان مثل بيت الله الحرام يرش الأمـــن والطمأنينة على مخاوف النفس وأكدار الحياة؟.

هـــل هناك مكان في غير مكة أقصـــده فأطوف بالبيت العتيق فتطوف في نفسي أنهار من الارتياح وأطياف من السكينة ؟

وأخيراً هل أجد مكاناً باعثاً على الروحانية والطمأنينة أهرع إليه فأســجد أمام الكعبة مناجياً ربي في حرمه فأســتريح بعذب المناجاة من عذابات الدنيا وأوجاعها؟

مكة المكرمة
نهار من رحمة وأنهار من سكينة !.
=٢=

أعندها لم أجد جواباً .. لأن الحق ما قاله فعلاً، فإن لحظة ارتياح وعبادة وطمأنينة وسجود بين المقام وزمزم تعادل كل مطامع الدنيا ومطامحها.

أجل لقد كان محقاً في رفضه.. فالسعادة الروحية التي تضيء جوانبه وهو في مكة المكرمة أكبر من أي سعادة مادية هشة، وأن عبق الروحانية في جوانحه لا يعادل ضياع المرتبة في سلم وظيفته، ولكنها لم تضع فمن ترك شيئاً لله عوضه الله، فقد تمت ترقيته بعد ذلك بوقت قصير، وبقي هانئاً في أم القرى.

***

•• في مكة تشعر بفيض من الطمأنينة التي تجعل السعادة تتدفق بين جوانحك نهراً من الارتياح النفسي الذي لا يترمد ولا يتلاشى، وتحس بفيوض من السلام الذي يغمرك ويغتال أشباح الشجن في ذاتك.

وما أصدق أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما قالت : «والله ما رأيت السماء أقرب منها إلى الأرض إلا في مكة المكرمة» . وهي لا تقصد ـ رضي الله عنها ـ القرب المادي، ولكن القرب المعنوي والروحي، فالإنسان ـ على أرض مكة ـ يحس أنه أقرب إلى السماء إيماناً وطمأنينة وروحانية، وقد ثبت ذلك علمياً مؤخراً.

●● إنها مكة المكرمة أم القرى، وحسبها دعاء أبينا إبراهيم أمْناً على الأرض، ورغداً في العيش، وجباية للثمرات لها من كل مكان.

***

إنها مدينة المحبة ..!

تغسل أدران روحك مياه زمزمها .. وتمسح جراح أيامك بفيض الإيمان الذي يغمرك ما بين حرمها ومقامها وحطيمها ..!

في مكة المكرمة تحس كم هو التاريخ مجسد بين جبالها ووديانها .. تاريخ هذه الأمة الإسلامية التي هي الآن مغلوبة على أمرها .. ومنشغلة عن فتوحها بفتح نيران الخلافات والحروب بينها وبين نفسها.!

«مكة المكرمة»

يا نهاراً من محبة، وأنهاراً من رحمة.!

بين رحابك وفي طهر أرضك وبين أهلك وجدت شيئاً من ذاتي.. بعضاً من طمأنينتي.. ها أنت « ترشين الأمن ما بين مخاوفي».. كما يقول ذلك الشاعر الذي لقي الأمن تحت ستارة كعبتك ..!

وبعد ..!

إنه من العسير جداً أن أستطيع رواية كل ملامح قصة الحب الجميلة لهذه المدينة المقدسة .. ولكن إذا لم أستطع ركوب البحر «فلا أقل من أن أستقلَّ السواقيا ..!».

طِبتِ يا مكة المكرمة أهلاً وسكناً وقراراً .. وزادك الله أمناً وطهراً ورغداً.

أنا في طيبة ..
أنهل العطر .. وأمحو الشجنا .! "

=١=

حملت إليها تعب العمر
فوجدتها تسكب راحة العمر بين أضلاعي
جئتها مدنف القلب
فألفيتها تبثُّ العافية بين مشاعري
ركضت إليها أنشد «الطهر» من طهرها فرأيتها تضمّخني بطهرها.. وترشني بعطرها..!!

هي «طيبة الطيبة»
وأنا الإنسان اللاهث وراء رماد الوجود ومادياته، هأنذا بي ظمأ حارق إلى لحظة تجل .. أسرقها من لهاث الزمن لأجد فيها روحي .. أعود إلى بارئي وأغسل أدران دنياي بطهر الإيمان .. وندى الروضة.. وهتان وادي العقيق ..!

بضعة أيام قضيتها في مدينة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسست أنها من أغلى أيام العمر إن لم تكن أغلاها ..
أجل ألست في طيبة « أنهل العطر وأمحو الشجنا » ..
كما قال أحد شعرائها المبدعين.
ما أعظم التاريخ هناك.

***

هأنذا أسير بين الأماكن التي سار فيها محمد بن عبدالله .. أستاف من طهر مسجده .. أحدق في دارة ابنته فاطمة الزهراء .. أتذكر «فاطمة» ووالدها المصطفى يدخل عليها ذات ليلة في حجرتها

والجوع يسكن أحشـــاءها فيصمت والدها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو لا يملك شـــيئاً ليعطيها، وهو الذي تمضي عليه ليال لا توقد في بيته نار.!

***

وهاأنذا كأنـــي أرى ســـيدي «أبـا بكـــــر» ـ رضي اللـــه عنـــه ـ في أحد أســــواق المدينة بعد ولايته الخلافة، وبعد أن أصبح أمير المؤمنين، ها هو يبيع ويشـــتري كأي «متسبِّـب»، ويأتي إليه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يسأله مستنكراً: كيف تبيع وتشتري وأنت أمير المؤمنين ؟ فيصده الخليفة أبو بكر، يقول له: دعني إنني أسعى في قوت أهلي .. ألا رضي الله عنك وعنه.

وهاأنذا كأني أبصر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجل القوة يفيض حناناً ورقة، عندما رأى طفلاً يبكي وأمه تهدهده.. تطلب منه الكـــف عن البكاء ليفرض له عمـــر فرضاً بعد أن يتم فطامه.. ولكن الطفـــل يظل يبكي، ويمر عمر من عند بيتها في أحد أحياء المدينة، ووسط الليل البهيم فيسألها: لم يبك طفلك ؟ فتقول له : إنني أريد أن أفطمه عن الحليب حتى يناله فرض عمر من مال المسلمين .. فيرق لهـــا وله قلب « عمر »، ويكاد أن يبكـــي، فيقول لهـــا بحنان الدنيـــا كلهـــا : أعطيه ما يشاء من حليب وسيفرض لك عمر ما تريدين.!

أللّـــه..!

هذه هي المدينة .. مدينة المواقف المضيئة .. والأمجاد الخالدة.. مـــأرز الإيمـــان .. ودار المهاجرين الذين تبـــوّؤوا الدار والإيمان، والأنصار الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

المدينـــــة المنـــورة، أحب البقاع إلى الله، تلـــك التي دعا لها أبو القاسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبارك الله فيها كما بارك لإبراهيم في مكـــة وما حولها، فيجعل الناس تهـــوي إليها، ويرزقها من كل الثمرات.

أنا في طيبة ..
أنهل العطر .. وأمحو الشجنا .! "

=٢=

إنني أتذكر ســيدي محمد بن عبدالله وأنا أســلّم عليه .. وأسْـــلمُ قلبي ومشاعري لمحبته.. أتذكره وهو يقول عن المدينة المنــورة «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».. أجل إنها خير.. أليست وطن القوم الذين نصروه؟!.

أما ناس المدينة وأهلها، فإنك تحس بدنوك منهم .. وتشــعر بحرارة محبتهم .. وجميل تعاملهم .. وصادق وفائهم .. أليســوا أحفاد سعد بن معاذ الذي قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحاول أن يستشــف رأيه ورأي الأنصار في المدينة عندما كان يســتعد لغزوة بدر.. وما إن لمح « سعد » إشارة المصطفى وعزمه على هذه الغزوة حتى قال كلمات خضبت وجه التاريخ بالبهاء والوفاء: «كأنك تعنينا يا رسول الله.

قال : نعم.

فقال: لقد آمنا بك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . وأعطيناك على ذلــك عهودنا ومواثيقنا على الســمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك».

اللّـه .. قمّة الوفاء من طيبة الطيبة وأبنائها.

***

هاأنــذا أصعد جبل «أحد» الذي يحبنا ونحبه .. جبل أحد الذي اهتز عندما صعد عليه رســول الله ـ صلى الله عليه وســلم ـ مع صاحبه أبي بكر.

وهـا هي «ثنيات الوداع» .. وأتخيل رسـول الله - صلى الله عليه وسـلم - عندما أقبـل مع أصحابه المهاجريـن إلى ثنيات الوداع، واستقبله أهل المدينة منشدين فرحين:

«طلع البدر علينا من ثنيات الوداع .. وجب الشـكر علينا ما دعا لله داع».

هل أسترسـل في اسـتقراء التاريخ ؟ إن فـوق كل جبل في المدينة ذكرى .. وتحت كل ثنية وهج مجد، وبين شـعاب كل واد تاريخاً أبلج .. وأنت ترى شموخ وأمجاد وآثار عمر وخالد.

***

يا أيتها «المدينة المنورة» . كما هو أحد أسـمائك .. دعيني أمسـح بضوء رحابك بعض آلامـي.. دعيني أطـرح همومي، وأستشف روحانية جبالك وروضتك.. دعيني مع سيدي عمر بن الخطاب أدعو الله بدعائه : «اللهم ارزقني شـهادة في سـبيلك، واجعل موتي في مدينة رسولك».

لعـل في هذه الأمنية بعض العـزاء.. فيض الارتياح .. نبض الأمل الكسير .. في ركام واقع المجتمع الإسلامي الأسير.

يا طيبة الطيبة..

يا مدينة الإيمان الراسخ رسوخ جبالك.

يا مدينة الشـموخ شموخ عسـبان نخيلك .. يا مدينة العطاء فيض وادي عقيقك.

هاأنذا أريح قلبـي بالحديث إليك .. وأُشَـرِّف قلمي بالكتابة عنك.. وأنقي دواخلي بالمناجاة في روضة مسجدك ..!

مدينتي الوادعـة ..!
مغانٍ هي التاريخ والعمر والهوى!

مدينتي ينام الشوق بين عينيك..!
ويغفو الماضي كطفل بريء بين أحضانك.
أهفو إليك كلما مزق سكينتي صخب الحضارة..
أهفو إليك كلما ضج الوله في أعماقي، وكلما اشـــتقت لدفء ورائحة أمي .. وكلما أزهر الحنين في نفســـيٍ إلى مراتع الصبا.. هنـــاك حيث كنت أعيش مع أندادي طفلاً غضاً لا يدري هل الدنيا تدور بأهلها أو لا تدور..!
يا «عنيزة»: يا جارة الوادي .. مدينتي الوادعـــة..!
العشـــاق قد ينسون آســـرات قلوبهم كلما نأوا عنهن، لكنني - يـــا حبي الكبير - يكبر شـــوقي معي كلما صافحـــتُ الحنينَ في هدبيك، وكلما شـــعرت أنك تجاوزت عمر الطفولة حتى أضحيت فتاة ممتلئة جمالا وشموخا.

***

●● تلك الربوة التي تغفو كعاشقة على أرائكك الخضراء.. هي أبجدية تاريخي وعذرية ابتساماتي ونهر فرحي .!
كم مرة أصغت لمن يغني: فأترنّم معه:
«هذه الربوة كانـــت ملعبٍـــا
لشبابينا وكانـــت مرتعـــاً
كم بنينا من حصاها أربعاً
وانثنينا فمحونا الأربعـــا»

***

هل نســـيتْني - يا فاتنتي - ربوتك؟ هل كانت كربوة شوقي لم تحفظ ولم تع.

لا .. لم تنسني..!

لقــد عهدتها - يا غاليتي - وفية كــدفء قلبك، نقية كرمالك، شامخة كنخيلك، حنونا ككحل جفنيك.

وأنت عهدتك يا عنيزة: بدوية بســيطة لم تعرفي بعد حضارة الأسمنــت ولا مدنيـة الحديــد، ولا زيف «الرخام»..!

بيوتك الطينية الجميلة.. التي كانت تطرّزها عســبان النخيل، كانت أجمل في أروقة أجفاني - لو تعلمين - من ناطحات السحاب، وخداع الأضواء..!

كان الفرح بين عينيك – يا لعينيك - يمتد كســواقي بساتينك فيغمر الأرض بالاخضرار، والقلوب بالبِشر..!

***

آه .. يا مدينتي..!

«من الحضارة المجلوبة بتطرية » لو أدركتِ ذلك يا مدينتي - ما خلعت «برقع الأصالة» وارتديت « مكياج» الحضارة.

أين شاعرك الراحل عبدالعزيز المسلم الذي أشجاه عندما زار مدينته ومدينتنا «عنيزة» فبحث عــنٍ بيته الطيني الذي أضحى عمارةٍ ومدرســته التي صارت شارعاً وسوقه المسقوف أصبح "مولاً" عندها أرســل دمعة وأنشــد قلبه قصيدة مؤثرة .. يقول فيها:-

«مغان الصبا تهوي عليها المعاول
أضاقً الفضا: حتى تراع الأوائل
أأنسى؟ ومن ينسى صباه حياته
ربيع الفتى ما عاشه وهو جاهل
فذي «قبّة» كنا نلوذ بظلها
نناغي حصاها سقفها ونسائل
وذي «نخلة» كنا نطوف بجذعها

ونرشقها «النّباط» وهي تغازل
وذا «مجلس» طافت به أمسياتنا
روافل من أعراسنا وحوافل
وذا «مسجد» ضجت به نغماتنا
بآي المثاني صاخبات رواتل
وذي «دارنا» ذات الشموخ جدارها
يحاكي رفيعات الذرى ويطاول
مغان هي التاريخ والعمر والهوى
أفي ًغمضة تقضي عليها المعاول؟»

إنها ليست مغانيك وحدك يا شاعري بل ومغاني ومنازل كاتب هذه النبضات الولهى.. إنه يذكرها فيعاوده الحنين إليها .. يتذكرها فيشتعل شوقه إلى صباه وطفولته.

***

مدينتي: لقد تغيرت ..!

كنت تستحمين كل صباح ببكارة الفجر .. واليوم يتشوه ليلك بالضجيج . يتوارى الفجر بيـــن أهدابك فلا عصافير تغني .. ولا سواقي تغرد .. بل أصوات «التروس» .. وفحيح محرِّكات الموت!

كان الهدوء يســكنك، فأصبحت كأي مدنية تحضرت تسكنين الصخب..

مؤلم أن أجد أشـــلاء تاريخي الطفولي ممزقاً هناك، وأن أجد ابتساماتي سنابل طواها الخريف.

لكن مع كل هذا أحنّ إليك وأشــتاق لحضنك .. ففيك قبرِ أمي وأبي، وفيك أستذكر زمنا مرَّ على عمري فرحت فيه فرحا باذخاً غير مزيــف ؛ ولأنه مازال هنـــاك بقية أعزه يغــرد الحب على شجيرات قلوبهم، ويتضوّع الوفاء بين مدائن أحداقهم.

***

أيتها الصحراء .. يا غالية فقدناها ..!

«الصحراء»..!

بقدر ما فيها من وحشـــة وقســـوة فإن فيها دفئاً ونقـــاءً، ورحابة ارتياح.!

إنـها عالم أخاذ ســـاحر .. تملأ نفســـك حرية . وتـهتف بين دواخلك انشراحا..!

هل أجمل من «جلســـة» شتائية على حواف الخيمة .. تتحلق - مع صحبـــك - حول نـار «الغضا» .. وأمامكـــم « دلة عربيةٍ » تعبق بالـهيل تتحادثون أحيانا في مجاذبات جميلة، وتغنون آونة لحناً سامرياً يرتفع إلـــى أعماق الفضاء على أصـــوات الطبول التي تتجـــاوب معكم وأنتم ترددون بانشاء:

«حمام يغني بالصـــوت وينـــــــادي
نوِّه يذكر غريب الـــدار لديـــــاره
يلعي على ما نبا من جانب الوادي
يلعي من فوق غرس يمين الجسر ويساره
يلعي بصوت يضيِّـق فوادي
والنفس ما هيب عند الشوق عذاره
يا من الضيم ما هو ضيمي العادي
تغير الوقــت والايـــــام غـــــداره
يا بو فهد مسندي يا تال الاجوادي
فكن من اللّي نوى يشوين في ناره»

***

في الصحراء هل رأيت أجمل من لحظة مشـــاهدة ميلاد الفجر حين تكون على موعد مع انبثاق خيوط الضوء ؟.

في آفاق الصحراء لا تشاهد إلا جبالاً سمراء ورمالاً ذهبية حمراء، وسماء صافية، ولا تستمع إلا لغناء الطير، وثغاء الغنم، وحداء الراعي بعيداً عن صخب المدن، ومؤشرات الأسهم، ولهاث الدنيا، هذه الرهانات المادية التي تتقاطع مع هدوء النفس، وراحة البال.!

لكم كانت ليالينا جميلة .. وكم هي صحراؤنا أجمل.. قبل أن يسرق أعمارنا خزف المدنية، وركض الدنيا .!

لكم استوقفتني هذه الأبيات لشاعرة عربية قديمة.. كانت تناجي ذاتها .. أحسست وكأنها تناجيني بشكواها .. وتوقظ في أعماقي كل أشواق الصحراء وهي تغني على ربابتها:

«وما ذنب أعرابية قذفت بها
صروف النوى من حيث لم تنأ ضنت
تمنت أحاليب الرعاع «وخيمة»
بنجد فلا يقضى لها ما تمنّت
إذا ذكرت ماء العذيب وبرده
وبرد حصاه آخر الليل أنَّت»

وكلنا ـ أحيانا ـ نحلم « بخيمة » بيضاء .. وسط الصحراء .. نعيش فيها بقية أعمارنا، لا ندري هل الدنيا تدور بأهلها أو لا تدور، نائين عن مآسي الحروب، والسيارات المفخخة، وأشلاء القتلى، ومشاهد الدماء، و«الشاشات» التي تتعب القلوب بدلا من أن تمتعها .. ولكن هل نملك ذلك؟!

إن أشرعة أمانينا تتهشم على صوّان المدنية .. وقسوة المطالب الحضارية .. التي لا ندري ونحن نلهث وراءها هل هي تشقينا أم تسعدنا..!

معذرة فقد سرقتنا علب الأسمنت، و«أوراق الأسهم»، وصناديق الرخام منك أيتها «الغالية» التي فقدناها ..!

تجربتي في مجلس الشورى

=١=

عندما تشــرفت بالثقـــة الكريمة باختيـــاري عضواً في «مجلس الشـــورى» «١٤٢٢هـــ - ١٤٣٤هـــ» وكنت خلال عضويتي كثيراً ما أواجه بمثل هذا الســـؤال من كثير من الأحبة: كيف وجدت مجلس الشورى؟ وأحياناً يجيئ السؤال : كيف كانت تجربتك في مجلس الشورى؟!

وكنت أعتذر عن الإجابة أو أتغاضى عن السؤال وذلك لحداثة تجربتي عند طرح السؤال !.

▪▪ لكن رأيت أنه يحق لي الآن أن أجيب عن السؤال بصوت مسموع بعد انتهاء عضويتي لأن «منهجية الشورى السعودي» وليس «تجربتي المتواضعة» تستحق أن تسمع وتقرأ وأتوق أن يعرفها من يســأل ومن لم يسأل ســـواءً داخل بلادنا أو خارجها. وأشير ســـلفاً أن مجلس الشورى وأعضاءه يطمحون إلى الأكثر لخدمة الوطـــن وتمثيل المواطن ولكن ذلك يأتـــي بالتدرج بمنح الصلاحيات وتعديل بعض مواد نظامه.

***

•• لقد كنت قبل - تشـــرفي بعضوية المجلس - أســـمع كثيراً عنه .. فمن قائل إنه مجلس لا رأي للأعضاء فيه .. وكنت أســـمع وأصم أذني لأني لا أعرف عما يدور في المجلس شيئاً!

أما الآن فقـــد أدركت ورأيت واقع المجلس وعمله ومداولاته بجميع حواسي وليس عن طريق سمعي!

وسأقول وأجسّـــد في هذه السطور ما رأيت، ولا أكتم حقاً إن شاء الله.

•• وأبدأ حديثي بأول تجربة، وممارسة لي في هذا المجلس التـــي أعتبرها، من أصعب وأغلى المواقــف التي مرّت عليّ في حياتي.

ذلك عندما وقفــت ـ أمام خادم الحرمين وولي العهد والنائب الثاني وكبار المســؤولين في الدولة ـ عند أداء القســم بمناسبة صدور الأمــر الملكي الكريم باختياري مــع زملائي أعضاء في مجلس الشورى في الدورة الثالثة.

كان الموقف صعباً وأثيراً في الوقت ذاته.

•• إنني إذا كنت سابقاً صعدت وتحدثت عبر كثير من المنابر الإعلامية والاجتماعية فإن لهذا الموقف ـ موقف أداء القســم ـ شأناً بالغ الأهمية، ذلك أنك لن تلقي خطبة في محفل أو كلمة في أي مناســبة بل إنك في موقف رهيب تنطق فيها بأعظم قسمٍ أمام الله أولاً ثم ولي الأمر «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»:

«بســم الله الرحمن الرحيم أقسم بالله العظيم أن أكون مخلصاً لديني ثم لمليكي وبلادي وألا أبوح بســرٍ من أسرار الدولة وأن أحافــظ على مصالحهــا وأنظمتهــا وأنْ أؤدي أعمالي بالصدق والأمانة والإخلاص والعدل».

ولقد ظللت ـ ولا أزال ـ أستحضر وأتذكر هذه القسم العظيم ـ وأنا تحت قبة مجلس الشورى- عند كل رأي أبديه أو «توصية» أقدمها.

•• لقد رأيت ـ في مجلس الشــورى السعودي ـ رأي العين:

«تعددية الرأي» و «الحرية في الطرح»، وارتباط الموضوعات المطروحــة بالناس أنظمة وقضايا، بل رأيـت الجرأة - في قول الحـق- ولا يحكـم ذلك إلا نبـل الهدف، وموضوعيـة النقاش، ومصلحة الوطن بعيداً عــن «المزايدات» التي تهدف إلى تلميع الشـخص أو الحـزب أكثر مما تهدف إلى نصـوع الحق وجلاء الصواب. ولا عبرة هنا عندما يشذّ عضو أو آخر عن هذا النهج. فهو يمثل رأيه وحده ولا يمثل رأي زملائه.

***

●● لقد سـمعت وقرأت ورأيت وحضرت تجـارب برلمانية- وبخاصة في عالمنا الثالث - ورأيت فيها الوافر من اللغط والفائض من اللجج، والغثّ من الجدال، والحرية التي تصل إلى الفوضى، بـل إن بعض هذه المجالس - في عالمنـا الثالث - أصبحت عبئاً علـى بلادها ومنظومة تطورها بدلا مـن أن تكون عوناً لبلادها ومكتسباتها وسلطتها التنفيذية!.

لقد تحولت بعض هذه المجالـس في العالم الثالث إلى أماكن للجـدال وأكاد أقول «الحـراج» وأصبحت مواقـع للخلاف بدل الاختلاف، وأضحت عوامل تثبيط وتأخير لمسيرة التنمية لديها، وقـد قرأت الكثير من الطروحات فـي مواقع التواصل فيها وفي صحافة بعض تلك البلدان التي تنقد بقسـوة تجربتها البرلمانية لأنهـا لم تخدم مواطنيها، فلا تصل إلى رأي حول نظام أو إصدار تشريع أو سنّ قرار!.

تجربتي في مجلس الشورى

=٢=

في وطني رأيت تجربة أخرى مغايرة في «مجلس الشورى السعودي»، تجربة يحكمها عند طرح الرأي أدب الاختلاف لا فوضوية الخلاف.

رأيت «الوطن» بكل ثوابته وقيادته وأبنائه حاضراً في كل نقاش أو اختلاف أو تصويت يدور تحت قبة المجلس .

في مجلس الشورى السعودي عند الاتفاق بالرأي أو في حالة الاختلاف يكون هناك انحياز ولكن انحياز لكامل الوطن .. لا لمصلحة حزب .. أو نفع قبيلة .. أو منفعة شخص .. إنك تتوجه لمختلف أطياف الوطن ومصالحهم.

في مجلس الشورى السعودي ـ كما رأيت وعشت ـ لا أحد يفرض عليك ـعند مداولاته- رأيا تبديه، أو يحول بينك وبين رؤية تعلنها ما دام الرأي والرؤية يلتزمان عند طرحهما بأدب الحوار ونظام المجس ، وفي النهاية الفيصل هو «التصويت» على «الرأي» أو «النظام» أو «القرار» أو «التوصية» وأمامك جهاز تضغط «بنعم» أو «لا» دون أن يتدخل حتى جارك الأدنى بموافقتك أو معارضتك وعند النتيجة يفوز «القرار» ذو الأصوات الأكثر عدداً حتى ولو كان الفارق صوتاً واحداً !.

●● في «مجلس الشورى» رأيت أن العضو يطرح الرأي الذي يقتنع به.. ويجهر بإبدائه لا يحكمه إلا مراعاة الله أولا ثم مصلحة وطنه و «المستشار مؤتمن».

إن هذا الخطاب الشوري السعودي الهادف والهادئ معاً.. هو ما اخترناه وارتضيناه ـ كسعوديين ـ ولا ننازع الآخرين في خياراتهم.

حسـبنا أن هذا الخيار هو الذي يتلاءم مع مجتمعنا، وهو الذي يوصلنا لـ «الغاية» التي نبحث عنها وليس من حق أحد أن ينازعنا فيما اخترنا .. كما أنه ليس من حقنا أن ننازع الآخرين فيما اختاروا.

***

•• إنه ليس المهم الوسائل والأساليب، بل الأهم الوصول إلى الغايـات المرتجاة .. «إن العبرة بالنتائـج» كما قال معالي رئيس مجلس الشـورى الراحل الشـيخ محمد بن جبير ـ رحمه الله ـ في حوار صحفي معه.

إن المجالس في الدنيا كلها سواء كانت شورية أو برلمانية،يأتي تفعيل دورها «بصلاحيتها ـ وليس بانتخابها أو تعيينها»، كما ورد بمقـال الكاتب المعروف د عبدالله مناع :الصلاحيات والانتخابات ـ صحيفة المدينة ٢٨/١٢/١٤٢٣هـ.

وكل أمة تختار الطريقة التي ترتضيها سواء كانت «شورية» أو «ديمقراطية» وليست الأولى نقيضاً للثانية ـ كما قال معالي رئيس مجلس الشـورى السـابق د. صالح بن حميد في رأي موضوعي مستنير جاء في بحث منشور قالٍ فيه:

«الديمقراطية ليسـت نقيضاً للشـورى لكن لكل منهما مبادئه وأسسـه وقواعده وميدان الاجتهاد بالشورى يمكّن من الاستفادة من الجديد النافع ولـو كان وافداً أجنبياً وذلك بعد النظر والاجتهاد والانسجام مع أصول الإسلام وقواعده» ـ صحيفة «المدينة» ـ. .

ولكل وطن قناعاته وثوابته وظروفه واختياراته.

•• لعل من أهم دلائل نجاح تجربتنا الشوريـة والقناعـة دولياً بـهـا : الإجمـاع الدولي قبل عدة سـنوات عندما عرض موضوع انضمام مجلس الشورى إلى إتحاد البرلمان الدولي، لقد كانت الدول الممثلة بالبرلمان الدولي «١٨٠» دولة وافقت كلها على انضمام

المملكة، ما عدا اسرائيل.

***

•• ولا أدعي ولا يدعي وطني أن هذه هي الآلية النهائيةٍ الأفضل لتطبيق منهج الشورى، فنحن وطن نسعى إلى الأمثل دائماً، ويحث خطاه ورؤاه ليأخذ بالأكثر جدوى منطلقا من ثوابته، ومفيداً من نجاح تجارب غيره !.

لكن - تجنباً لعثار الخطى - يأتي ذلك تدرجاً عبر وسائل متئدة رصينة تفضي إلى الهدف ولا تسقط في غمار المغامرة.

***

•• لفتة أخرى جميلة ولعلها من الأشياء التي يفخر بها المجلس وهي : أن أعضاء المجلس يختلفون تحت قبة المجلس لكن من منطلق البحث عن الأصلح للوطن .. ولهذا لا تسمع تحت قبة المجلس كلمات تجريحية أو أساليب خلاف غير لائقة، بل إنهم يخرجون من المجلس الذي قد يكونون اختلفوا تحت قبته في الرأي وهم متحابون وهذا يبتعد بهم كما نرى في كثير من البرلمانات عن ثقافة التنافر التي لا تخدم المجلس ولا الوطن.

وبعد:

هذه هي «الشورى» التي اختار لنا ربنا، وطبقتها قيادة وطننا، وارتضتها أمتنا .. وهي تجربة متميزة - إذ هي نابعة من تعاليم خالق البشر الذي هو أدرى بكل ما يهدف إلى سعادة الفرد ورقي الأمة.

وهي بالطبع بحاجة إلى المزيد من التطوير والمجلس يتطلع للوافر من الصلاحيات ليؤدي رسالته بشكل أكبر .. ولكن التدرج مطلوب فحرق المراحل قد يحرق درجات السلم وقد يعرض الهدف للكسر.

أيها الوطن
رائعة ضفائر نخيلك .!

كلما رحلت عن بلادي .. أحسست أنني في قسوة الغربة أشد التصاقاً بها، فالبعد عنها يزيدني قرباً منها.!

نحــن ـ أبناء الصحراء ـ لا نســتطيع أن نتخلى عن عشــق هذه الصحراء رغم قسوتها طقساً وجفافا، لكننا مثلها مسكونون بالوفــاء والحب .. إننا نجد «للخزامــى» و «الفل» و «الكادي» و «الورد الطائفي» رائحة تهزأ بأفخر العطور الباريســية عندما نكون بعيدين عنها.

«عشق الصحراء» نلحظ أنه يتبعنا كظلنا في أي أرض حللنا.. ونحن سعداء بهذا .. هذه الصحراء تعني في جوانحنا المزيد من الأصالة والقيم والمثاليات.

إن لها نكهة الهيل، ورائحة الغضا وعطر الخزامى.

حتــى « لهجتنا » نــداري عليها عندما نبتعــد عما نحب أن نقتــرب منه .. إننا نراها كـ « حب وليد » نداريه .. ندلله .. نغني على مسامعه خشية أن يهرب.

في الأسفار عندما نلتقي ببعض إخوة من هذه الأرض نمتلئ بالحســرة عندما نجد منهم تنكّرا للأشــياء الغاليــة في وطنهم واجتراح سلوكيات خاطئة لا تليق بقيم دينهم وصحرائهم، ليتهم يفيدون مما يرونه جميلا، وليتهم يدركون أن كثيراً مما رأوه إنما هو زيف ومظاهر، والبقاء دوماً للأشياء الأصيلة، التي رضعوها مع حليب أمهاتهم وهم ـ بعد ـ ورد لم يتفتح.

«الوطن» يسكن وجداننا فكيف نتخلى عنه وهو أمان الروح.. والدوحة المظلة في لفح الهجير.

يبدو أننا من شدة ولهنا، لا ندرك كم هو عظيم حب الوطن إلا إذا نأينا عنه، لنجــرب أن نبتعد عمن نحب لندرك لوعة الفراق، وسكينة الأمان.

يـــا أيها الوطن : إننا عندمـــا نبتعد عنك نجد أننا اقتربنا منك، وعندما نفارقك نلقى أنفسنا قد دنونا إليك.

***

●● كم هـــي رائعة ضفائر النخيل فيك .. وهـــي تفرد أياديها عند الـــوداع واللقاء .. وكأنها تقول لنا جميعـــاً: أريدكم مثلي .. أصالة وكبرياء .. وحباً وحنيناً ملتصقاً في الأرض .. ومرفرفاً في السماء.

أيها الوطن

إنك نشيد حبنا ووفائنا لك أبداً .. هأنت تورق في نفوسنا عطاءً، ونحن نمتلئ بك وفاءً لعينيك، وحباً لمغانيك، وهياماً بأوديتك.

أيها الوطن ..

« وحدتـــك » أجمل وحدة .. لأنهـــا بُنيت على الإيمان والحب والإخلاص، فأثمر الإيمان الأمان، وأزهر الحب بالرخاء، وانطلق البناء بالإخلاص.

لتبقِ أيها الوطن ..

قوياً كجبال صحرائك، شامخاً كنخيل أرضـــك، متدفقاً بالعطـاءِ كتدفق الحـب ما بين جداولك، مهيباً «كقدســـية حرميك»، جميلا «كرياضك».

حفظك الله

واحة إيمان

ودوحة أمان.

مرافئ تأملية

***

«تقضَّى زمان لعبنا به
وجاء زمان بنا يلعب»

«الشاعر عبدالرزاق الصمعاني»

***

«تمضي السنون بروقا إن حوت فرحاً
ويزحف اليوم دهرا إن طوى سأما»

«غازي القصيبي»

***

«وأحرق الدمع ما يبقى بلا سفر
وأقتل الجرح ما يخفي ويستتر»

«د. راشد المبارك»

من نافذة طائرة:
تأملات في ملكوت اللّه !

لا أحب شــيئاً عند دخولي لذلك «الصندوق الطائر» مثل حبــي لقراءة كتاب الفضـــاء المفتوح، والتأمل في ســفر الكون الأزرق .

في إحــدى الرحلات التي صـــادف موعدهـــا موعد غروب الشمس، كان منظر مشاهدة الغروب مشهداً مهيباً رهيباً..!

كانت لحظة غروب الشـــمس أو كما يعبر القرآن الكريم لحظة «ولـــوج النهار في الليـــل» قمة الرهبة والدهشـــة، لقد لاحظت الشـــمس وهي ترحـــل .. ترحل ثم لا يبقى خلفها ســـوى أطراف فســـتانها البرتقالي الجميل، ثم تختفي كلية بقرصها وفســـتانها وأشعتها..!

سبحانك يارب الأرض والشمس..!

لقد تذكرت والشـــمس تقرأ سطور وداعها لجزء من الأرض ما أثبته علماء الفلك من أنه لا يصل من إشـــعاعات الشمس إلى الأرض التي نعيش عليها ســـوى واحد من (٥٠٠٠) مليون من ضوئها .. وهذا الإشعاع لا يصل إلى الأرض مباشرة بل يمر عبر طبقة الأوزون التي تحد من حرارته وإشـــعاعه وإلا لكان ضرره على الأرض وسكانها كبيراً بل قاتلاً..!

لك الحمد يا ألـلـــه..!

***

انتهى مشـــهد غروب الشمس .. وأنا أتأمل .. أتأمل، ثم بدأت تغطي الكون عباءة سوداء مهيبة رهيبة أيضاً..!

ومضى حوالي ســـاعة وأنا في مقعدي أقرأ في صفحات سفر الليل.

ها هو القمر الفضِّي يشع بأنهاره الفضية اللامعة.

وها هي النجــوم والكواكب والمجرات وعوالم أخرى أعرف القليل منها، وأجهل الأكثر.

ألـــه..!

كــم هو عظيم هذا الليل وأنت تخترق ســدفه في الفضاء وقد أرخى سدوله، وأنت مســـتغرق في بحره اللجّي المتلاطم العوالم والظلمات.

ها هي السماء التي أحسست أني قريب منها ..!

السماء الزرقاء الصافية المرصعة بالنجوم المضيئة تتهادى على صدرها أجمل عرائس الكون و «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب».

ثم أغمضت عيني..!

أتفكر في هذه الأرض بليلها ونهارها .. بجبالها وســـهولها .. برمالها وأشجارها .. وبقاراتها وقراها بوهجها وهجيرها وآلاف الملايين من سكانها.

ثم أتخيل عظمة هذه الأرض وحجمها الكبير.

ثــم أتصــور عظمـــة الله : خالق الأكــوان، مدبّــر الأفلاك، وأســـترجع ما قرأته من معلومات عن هذه الأرض الصغيرة جداً «حيث إن هذه الأرض التي أتخيلها عظيمة هي جزء بســيط جداً

من المنظومة الشمسية، والمنظومة الشمسية بأرضها وبشرها وعوالمها وطبقاتها ليســت سوى نجم واحد من «٤٠٠» مليون نجم في مجرتنا «درب التبانة» .. وحتى هذه المجرة ليست سوى واحدة من ملايين المجرات في هذا «الكون»..!

تباركت يا أللــه.

سبحانك .. هذا خلق عظيم ؛ ولهذا دعوتنا إلى التفكر في خلق الســماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لنرى آثار عظمتك وعظائم صنعك، ودلائل ربوبيتك..!

ومضت ســاعات وأنا في هذه الرحلـــة التأملية، وفي الرحلة الجوية معاً..!

لقد كانت الطائرة تسير وأنا مستغرق في الرحلتين التأملية - وهي الأعمق - والجوية وهي الأبسط.

ولم تمض سوى ساعات وكانت الطائرة باتجاه مسير الشمس.. حتى بدا شيء جديد أكثر إبداعاً، وأوفر إبهاراً، وأندى جمالاً..!

تلكم هي لحظة شــروق الشــمس من جديــد .. وخروجها - كحورية - مــن عباءة الظــلام الكثيف بكل جمالهـــا وأضوائها وفستانها الذهبي ..!

وإذا هــذا الكون المظلم المعتم الذي أرصده من نافذة الطائرة يضيء .. يضيء حتى تضيء ســماؤه .. وجباله .. وســهوله .. وأرضه .. وأشجاره ..!

لقد كان المشهد أحلى مما أتوقع وأجمل مما أظن .. وأكبر مما أصف ..!

ياصديقي من الزمن الأندى ..!

يا صديقي من الزمن الجميل:
إطمئنّ كثيراً فلا يزال في القلب مساحة كبيرة من الحب والرومانسية والأحلام رغم كل تراكمات المادة وغشاوة الرماد في هذا الزمن «المقلوب».
إنني لا أزال - كما عهدتني - وكما يقول ذلك الأديب ذو القلم والقلب الأخضرين: «إذا تركت في قلبك غصناً أخضر فلابد أن يأتي طائر أخضر ليغرد عليه».
وإن في قلبي أغصاناً خضراء كثيرة لم يمسها الخريف .. أو يزرها الإجداب .. وإنني من خلال هذه «الأغصان» أحاول أن أنثر مداد المحبة عبر الكلمة وأنثر مدد الفرح بين ضفاف قلوب الناس ما استطعت إلى ذلك سبيلا.
يا صديقي من الزمن الجميل .. يا من تقاسمت معك رغيف الخبز وأرغفة الأحلام .. هل - ياترى - لا تزال الحياة بألوان الآمال التي كنا ننسجها ونحن نطلّ من شرفتها على قادم الأيام؟ !
أرأيت يا صديقي من الزمن الأندى: أن الحياة بكل قساوتها وماديتها وشجونها - لا تستطيع أن تسرق من القلوب أحلامها واخضرارها، وإن حامت حول حماها.
يا صديقي .. يا صديق الفرح والجرح معاً:
أجيب عن سؤالك : «هل بقي في العمر بقية للأحلام والأماني البيضاء ..؟!».
أجل ..!
لقد بقي الكثير من الأماني والأحلام والحب والأنهار والنهارات الندية .. إن هذه الأشياء الجميلة هي التي تحرّضك على محبة

الحياة والأحياء .. إنها لا تخذلك أبداً.
اطمئـــن - أيها العزيز - فلا تثريب على هذا الزمن .. إن الخلل في قلوبنا ومشاعرنا، فنحن الذين نستطيع أن نفرد سواعد قلوبنا لغزل المشـــاعر الأنقى .. ونحن الذين نغلق بوابات صدورنا عن كل الأشياء الباهرة والمدهشة.

●● أرأيـــت – يـــا صديقي - أن الزمن - بســـلوكياتنا - يكون بهياً كضوء القمر، وآونة - بتشوهاتنا - يجثم قبيحاً كوجه سفّاك الدماء ..!

إننا نحن من نمنح لهذا الزمن جماله وقبحه .. مطره وغيومه.. دجاه وفجره.. هل أنبل من أن نكـــون معبئين بالمحبة، تلك التي تجعل صهيل الفرح يعمر بيادر النفوس .. ألم تقرأ معي قول ذلك الحكيم : «إن قلوبنا كالســـاعة إذا لم نعبِّئها بالحب كل يوم فإنها تتعرض للتوقف».

●● لقد عهدتـــك – يا صديقي - في ذلك الزمن الجميل ضاجاً بالآمال التي ترفرف راياتها على مدائنك.
أتـــوق أن تكون هذه الآمال موصولة ومتصلة، فالحياة بدون أحلام جميلة تعيش لها وبها ومن أجلها، هي أشـــبه بقبر موحش أو مغارة مظلمة!
لننتصر - بالمحبة - معـــاً على قبح هذا العالم بقنابله الذكية، ونيرانه الصديقة.
تعـــال - أيها الأثير - إلى الحياة الأرحـــب .. والأحلام الأبهى ولتعزف - كما عهدتك - على أوتار قلبينا تلك الأناشيد التي طالما غنيتها وتغنيت بها، وجعلتنا نستغني بها.
ألا ما أجمل ذلك الصهيل.
ألا ما أبهى ذلك الزمن الجميل.

الحياة بين .. الحدائق والحرائق !

أعرف أنني أحلم وأنا أتمنى أن يحمل الناس سنابل الحب بدلاً من سيوف الحرب . أن يطوقوا أعناق الآخرين بباقات الورد بدلاً من أن يقتلعوا رقابهم ببنادق الكراهية..!

كم أتوق أن يلعب أطفال العالم بين أزهار الحدائق بدلا من أن تواجههم أصابع البنادق.

كم أحلم أن تبقى هذه الدنيا ساحة للطفولة والطيبة والطهر.. وأن تنقشع عن سمائها غيوم الأحقاد .. وتموت في أرضها أشواك الكراهية..!

هل الحب في هذا العالم أصبح عسيراً إلى درجة تمنيه.!

إنـــني بين ركام دخان الحروب .. وأصوات الرصاص أرى أن الحبُ في هذا العالم أصبح مطلباً عسيراً إن لم يكن مستحيلا ..!

تـــرى ..! أيهما أجمل الرحلة بيـــن زنابق الأحداق الجميلة.. أم الســـير بين حرائق الحروب الداميـــة ..! وأيهما أبهى : قراءة قصائد الحب الزاهية أم قراءة أخبار الدماء المتناثرة..!

وأخيـــراً : أيهما أحلى ســـماع ضحكات الأطفـــال البريئة أم الاستماع إلى أصوات المدافع القاتلة..!

لو سادت « المحبة » لاختفت البنادق، وحلت محلها الزنابق، ولو اختفـــت الكراهية بين الناس « الزعماء والشـــعوب » لغار صوت النشيج وغرد صدى النشيد.!

لو ..!

ومعذرة ..!

أما قلت إنني أحلم ؟

هل هي صحوة مشاعر ..!

فـــي حوارك - مع الآخرين - متعـــة، وتتألق هذه المتعة عندما يكون الطـــرف في الحوار صديقاً حميمـــاً، يمتلك رجاحة العقل، وأبعاد التجربة، ودفء المودة.

ذات مســـاء كنت في حوار مع واحد مـــن هؤلاء قلت له وأنا أحاوره: ألا تلاحظ معي عودة الناس إلى أنفسهم وإلى تواصلهم وإن مواقع التواصل حفّزتهم ويسّرت ذلك.. وأنهم أصبحوا أقرب ما يكونون إلى بهي التواصل، وحميميّـة التقارب قال: لعلهم إلى ذلك عائدون .. لقد جربت شيئاً من هذا التكالب المادي فرأيت أن «لحظة دفء» مع الغاليين عليك تعادل كنوز الدنيا . قلت له: إن هـــذه علامة عودة إلى حميميّـة القرب بعد أن وجد الكثيرون أن الكثير من «الركض» وراء سراب الدنيا ليس وراءه سوى القليل من الراحة، والوافر من الشقاء.

قـــال: أجل إن ذلك الركض كاد أن ينســـى النـــاس تواصلهم وعواطفهم وشيمهم ليس ســـعياً وراء ابتغاء فضل الله.. بل كان انسياقاً مجنوناً أنسى الناس أنفسهم، وأضاف : لعلنا نعيش الآن «صحوة المشاعر» وثراء الأحاسيس، أما ثراء الجيوب - وحده- بدون راحة البال ومحبة الناس - فهو لا يجلب إلا ســـعادة هشـــة وشكلية.

قلت : ولعلنا نجد مؤشرات هذه «العودة الحميدة» وقد أضحى «التواصل» يأخذ التقنين والدقة بالمواعيد، وتمثل ذلك في الآونة الأخرى بما يطلق عليه اسـم «الدوائر» حيث تكون بين الأقارب والجيران والأصدقاء على فترات مختلفة إما أسبوعية أو شهرية أو عبر لقـاءات بالفنادق والمقاهي وعضـدت ذلك التواصل بـ «مجموعات الواتس..!» أخيراً.

قال: لعل الناس وصلوا إلى قناعات سـليمة وهي إيمانهم أن الركض والتهافت على الدنيا دون دفء تواصل الآخرين ومحبتهم والاقتراب منهم إنما ذلك «تنور» يحرق ولا يورق.

قلت: ولعل هموم الحياة ومشـاغلها الكثيرة التي تكاد تناهز هموم امرئ القيس في ليله الذي أرخى سدوله عليه .. لعل كثرة هذه الهموم جعلت الناس يقتربون أكثر.

قال: أتوق إلى ذلك ولكن مع الأسـف أضحت الأجهزة الذكية فضاءات للابتعاد وكأن كل واحد في جزيرة منعزلة حتى وهو بين أهله وناسه وهنا صمتَ موافقاً.

وختمت الحوار وأنا أردد معه بلسان الحال : الحياة جميلة .. وقمة جمالهـا في تواصلك مع من تحبهم، ولقاؤك بالأخيار ممن تغليهم.

«الحرمان» وقيمة الأشياء

كانــت أفــراح الطفولة بهيــة كصباح القــرى .. جميلة كابتسامات الأطفال .. ممتدة كضفائر العذراء..!

كان الظفر بـ «قطعة حلوى» يجعل الدنيا أخاذة كيوم ممطر.. كانت الهدية المتواضعة التي ينالها الصغير منا تجعل الإنسان لا ينام من الفرح لكيلا يغمض عينيه عن رؤيتها والابتهاج بها..!!

الآن أصبح لا قيمة لشيء مهما كان ثميناً.

هل لأن الزمن تغيّر، وتوافرت كل الأشياء حتى الغالية منها، وقيمة الشيء دائما بمقدار الهيام به.

ها هم الأطفال يفرحون بأغلى الهدايا برهة قصيرة من الوقت ثم ينصرفون عنها.

كنا نتوسَّــد الفرح في طفولتنا «ونحتار أي شطريه أحلى» .

إن الحرمان ـ مهما كان قاسيا ـ يجعل للأشياء قيمة ومعنى..!

وهــذه حقيقة «لا تتناطح فيها عنزان» بل إن أحد الشــعراء جعــل فراقه ممن يحب أمنية ليحسّ بلذة اللقاء بعد الفراق .. ذلك هو أبو تمام في بيته الذي ينطوي على فلسفة صادقة:

«ولو عرف الناس التلاقي وحسنه

لحبّب من أجل التلاقــي التفــرق»

إن الحرمــان بقدر ما هو ظمأ في بعــض لحظات العمر فإن الارتواء من بعده ضياء يمتد إلى كل العمر.

«الدرب وعر كالقتاد بلا حنان»..!

سئلت في حوار ثقافي : هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا أحلام وبلا «رومانســية» بعد أن غمر وجوده السعار المادي؟.. فأجبت:

لا أتصور ذلك بل أحســب أنه كلما استشــرى السعار المادي كان الإنسان أكثر حنينا إلى الأحلام والرومانسية.

ومن نعم الله أن « الرومانســية » لا تخص شعباً دون آخر.. فالرومانســية في الحياة وفي الأدب وفــي الفن هي نتاج عاطفة مرهفــة.. ونــداء جوانح ندية تحلــم بالحنان والجمــال.. وهذه العواطف ليســت وقفاً على الشعوب الصناعية دون غيرها .. أو على أبناء قارة دون أخرى.. بل إن الشــعوب كلما أغرقت نفسها في زهــرة الحياة الدنيا كانت أكثر احتياجــاً إلى دفء العاطفة.. وحنان القلب وهدوء الحياة.!

إن أي شعب في الكون لا يستطيع أن يعيــش دون «أحــلام» تضيء غــده.. دون «ورود» تبعث في دواخله الري .. ما معنى الحياة من دون حب.. ومن دون رومانســية، ومن دون قارورة عطر؟!.

كم يكون الكون مظلماً وشــتاءً قاسياً دون مشاعر أو شعر - بكســر الشين - وقد اختصر الشــاعر غازي القصيبي هذا الأمر عندما قال:

«قفي! فالكون - لولا الحب - قبــر

وإن لم يسمعوا صوت النواح»

وفي «فرنســـا» إحدى الدول الصناعيـــة الكبيرة دعوة ملحة للعودة إلى عوالم الرومانسية والأحلام والأقمار والليل الجميل.!

لقد ســئم الإنســـان آلية هذا العصر التي تكاد أن تحوله إلى «رقم» في إحدى طرفيات الكمبيوتر.

لقـــد بدأ يحس أن له قلباً يحن، ومشـــاعر تظمـــأ .. وعاطفة تشتاق.!

وكل ماديات العصر لا تســـتطيع أن تســـكب عطر الحنان في قلوب الناس، وليســـت قـــادرة أن تروي المشـــاعر الظامئة إلى الندى، وهي أعجز من أن تطفئ لهب العواطف بأشكال المادة.

والصينيـــون لديهم مثل عتيق وعميق يقول: «إذا كنت جائعاً وكان لديك درهم فاشـــتر بنصفه رغيفاً تملأ به معدتك، وبنصفه الآخر وردة تسعد به جوانحك».

إن الإنسان

جسد، وعقل، وقلب

وللجسد متطلباته، وللعقل مطالبه

وللقلب عواطفه..!

والدرب -أخيرا- كما قال أحد الشعراء الرومانسيين: «وعر، كالقتاد بلا حنان»!

أليس كذلك؟

كيف تنسى أهدابهن العيون..؟!

أعرفه إنساناً
رائعاً بخلقه وإنسانيته ورقته
وهي امرأة ـ كما يقول عنها ـ
أخاذة بحنانها وصدقها ونقائها

التقيا ـ صدفة ـ في مسار واحد .. وحّدهما الحوار، وقرب بين ديارهما صدق العطاء .. وقد يكونا التقيا من قبل فـ «الأرواح جنود مجندة».

هو لم يضع في حساباته أنه ربما يلتقي معها حواراً أو رأياً أو مشاعر، وهي الأخرى لم يكن بحسبانها ـ أن تلقاه صوتاً أو جرحاً، وقد يوحِّد بين اثنين دمعهما، أو فرحهما..!

كان أبعد شيء أن يخالا أن « طيف الود » سوف يضم شراعيهما.. ويرسي بقلبيهما على مرفأ «الحب النقي» رغم كل الأمواج التي من شأنها أن تغرق كل شراع فكيف بشراع الحب؟!

لقد فرش البوح النقي طريقهما وازدهى الطهر على جسور تلاقيهما.

ها هو يرى العطر ينسكب ندياً رقيقاً بين لحظات عمرها..!
وها هي ترى الفرح يتنامى في حديقة قلبيهما.
ولم يكن هو «قيسا» بغاية حبه.
ولم تكن هي «ليلى» بهدف حبها.

***

كانا يدركان ـ بكل شجن ـ أن لهذا «الخيط الرقيق النبيل» نهاية.. لابد أن يتوقف عندها، أو ينقطع عند مشارفها لكن صعب عليه أن يخذل حبها له، وصعب عليها أن تخذل حبه لها، عزَّ

عليه أن يبدأ نقض هذا الخيط كما شق عليها هي الأخرى أن تبدأ الخطوة الأولى .!

تركا للزمن - متَّفقين دون اتفاق - أن يقوم بهذا الدور العسير.. أن يشعل أوار الحريق في مورق هذا الحب الوحيد كنجمة.. العذب كغدير .. النقي كأحلام الطفولة.

***

توارى ذلك الحب مكسور الجناح.

تمزق جناحاه .. ظلا يحتميان من برودة الصقيع بدفء الذكرى حينا.. وبمطر الحنين حينا..!

حاولا أن ينسـياه أفراحاً وجراحاً، شـموعاً وظلاماً، رماداً ووروداً.!

لكـن كيف يقـدران على نسـيانه .. كيف يمتلكان شـجاعة النسيان.. وهو أنبل ما عاشاه في حياتهما.

كيف يمتلكان الشجاعة في وأد ذكرى ذلك الرحيق؟.

هل تقدر السمكة أن تقرأ كتاب نسيان السباحة في البحر ؟.

هل تسـتطيع الوردة أن تكتب فصل النسـيان فلا تبث للندى عطرها.؟!

هـل تملك الخيول الأصيلة نسـيان صهيلهـا ونقع معاركها البطولية.

«هل تنسى أهدابهن العيون» .!

إنهما سوف ينسيان فقط عندما تسـتطيع الأسماك والورود والخيول والعيون ممارسة النسيان.!

لقد افترقا «والنور نذير طالع .. والفجر مطل كالحريق».

لكن.!

بقي شمع الذكرى دافئا كقلب عاشق، حنونا كأهداب عاشقة.!

ذلك الذي يتهادى كقطرات الطل .!

«النسيان»

تلك الإغماءة الأبدية للكثير من همومنا .. ولحظاتنا الحزينة.. كثيرة هي الأشياء التي تظل تدق في جنبات صدورنا، ولكن سيوف النسيان تأتي لتسكت هذا الضجيج .. وتلقيه في أقبية الماضي.

إننا في حياتنا نفقد كثيراً من الأعزة علينا بموت أو رحيل، ثم نحزن عليهم أياماً أو شهوراً، ولكن عامل النسيان يتدخل فيقطع دابر ذلك الهاجس الحزين .!

والنســيان نحن لا نفتعله لكنه يأتي عفوا.. يأتي سمحاً يمسح قتام قلوبنا كقطرات الطل علــى وجنة الزهرة.. ويتهادى مضيئاً كفرحة النصر على جبين البطل .!

النسيان كما أنه ينسخ ســطور همومنا .. وأشجاننا فهو في المقابل أيضا يمسح الكثير من ذكرياتنا .. وابتساماتنا.. ولحظات توقنا.. وقد بلور هذه الحالة شاعر رائع عندما قال:

«ونسيت الجمال حتى كأنــي لم أضمِّــخ بنوره ألحانـــــي
ونسيت الأنسام تنقل في الموج نشيــد الطيـــور للغــــدران
ونســيت النجوم فـــي الأفــــق نشــيـــدا مبعثـــــر الأوزان».

لكن مع كل ذلك فالنســيان يبقــى رائعا.. وزورق نجاة عندما

تطاردنا أشجان الحياة.!

هناك لحظات يتمرَّد فيها النســيان أو لعله يتأخر في المجيء ليرسم عوامل من التشويق قبل قدومه.. كتلك الحالة التي عاشها الشاعر البحتري عندما فقد صديقه الأثير ماسح عبراته « المتوكل » فأنشــد قصيدته السينية الخالدة التي رسم فيها دموعه التي لم يستطع الزمن أن يمسحها مع مشرق كل شمس.

كثيرة هي الأشــياء التي تحتاج أن نهرق عليها ماء نسياننا.. وقليلة .. قليلة جدا التي تستحق البقاء.

إن الآمال إحدى عطاءات النسيان لأنها تنسينا جفاف اليأس، وتقتــل عوامل القنــوط .. فنحن عندما نحلــم ونُنبت الآمال في نفوســنا فمعنى هذا أن ننسى ونجعل اخضرار الأحلام يورق في مكان إجداب الآلام.

أنت لا تستطيع أن تعيش وحيدا .!

لابد أن تمتزج بالناس الذين يشكلون أفراحك وعذاباتك، ودموعك، وابتساماتك.

«الوحدة» حالــة مؤقتة .. أو هي نقاهــة من صخب الناس وضجرهم ولكنها ليست بمستطاعة كل العمر؛ لأنك بها تضع على نفسك حصاراً قاسياً ومؤلماً.

وقد ســئم الشــاعر الرقيق «كامل الشــناوي» ذات مرة من تفاهات الناس وأحقادهم وعداواتهم .. وأعلن قرار اعتزاله.. ولكن مخاض هذه التجربة صاغه بهذه الكلمات في كتابه «ساعات».

«قضيــت يومي كلــه وحدي.. أردت أن أجرب هل يســتطيع الإنسان أن يعيش بلا نا ..؟ قرأت كتاباً، وسمعت أغاني وموسيقى، ولكني لم أتصل بأحد ولم يتصل بي أحد، خيّل إليَّ هكذا وأنا وحدي أني مريض أتولى زيارة نفســي بنفســي، ولم أشأ أن أثقل على المريض بالزيارة الطويلة فغادرت البيت، واختلطت بالناس».

تلك تجربة «الشــناوي» مع الوحدة والناس.. لقد شــعر أنه عندمــا ابتعد عن الناس أنه يزور نفســه بنفســه.. وتلك ذروة الوحشة.

امتزاجنا بالناس هو شكوانا، وانعزالنا عنهم هو شكنا..!
وبين الشك والشكوى قناة لابد أن نعبرها..

لكن الشكوى أخف وقعاً على النفس ؛ لأن هذا يعني ارتياحك.. وإن مازج هذا الارتياح أمور تبعث على الشكوى.

لكن الشك بالآخرين منجل يحصد زهرات الراحة .. ويقضمها كورقات «سولفان» تعجز عن المقاومة، ولا تقدر على الصمود، إننا ونحن نمنِّي أنفسنا أحياناً بالوحدة نحاربها، ونهرب منها من حيــث لا ندرك .. إننا نلجأ إلى النــاس بطوعنا ورغبتنا، لنمتزج بغيرنا، لنحس أننا لسنا وحدنا، وقد نجد من بعض هؤلاء الناس شيئاً من الأذى، لكننا نجد من أكثرهم هناءً وارتياحاً.

نحن ندرك ونحن نعايش الناس ونعاشرهم أن فيهم من يبيِّتون لنا ما لا نرضى مــن القول، لكن غالبيتهم لا نرى منهم إلا جميل الفعل وطيب القول.

ليس أقسى من أن يشــعر الإنسان بوحدته.. المفكرون - في لحظــات إلهامهم - هم الوحيدون الذين يتشــبثون بالوحدة.. لأن ضوضاء الناس تمنع عنهم ســكينة التأمل وشــمولية التفكير.. وهم في هذه الوحدة يتعذبون كثيراً ولكنهم - وهذا هو الكســب - ينتجون كثيراً.

الإنسان ولحظات الإنهزام ..!

إننـــا مهما ادعينا الجلد والقـــوة والثبات إلا أننا كثيراً ما نجد أنفسنا في حالة ضعف لا نستطيع معها أن نقاوم أو نقف على أقدامنا.!

كثيرا ما تسمق شجرة الكبرياء في أعماقنا.. ولكننا ـ بسرعة الومض ـ نجد أن هذه الشجرة قد تطامنت عن عرش جبروتها..

كثيرون هم أولئك الذين ملؤوا مدن التاريخ بجلجلتهم وعظمتهم التي تفيض بالجبروت.. ولكنهم في لحظة ما من لحظات حياتهم تطامنوا، واستكانوا، وتحولت قوتهم إلى ضعف، واشرئبابهم إلى خور حتى لو هبت نسمة على أجسادهم لجرحتها وأدمتها .

وحافز الضعف البشـــري الـــذي يغزو قلعة الإنســـان فيهدم أســـوارها يتبايـــن ويختلف من عظيم إلى آخـــر أو بالأحرى من إنسان إلى إنسان مغاير .. فهذا شاعر العربية العظيم «المتنبي» الذي جعل خيول الكبرياء تمشـــي وراءه، وأسمع الصم من فرط غروره .. ها هـــو في لحظة ضعف أو لحظة حزن إعترته عندما ألجأتـــه يد الدهر إلـــى من لا يريد قال في ضعـــف وحزن بالغين يخاطب نفسه:ـ

«كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايـــا أن يكنَّ أمانيـــا»

وهذا مفكر آخر من بيئة أخرى إنه فيلسوف ألمانيا « نيتشـه» الذي نــادى بمبـدأ القوة، ورأى أنهـا الطريـق الأوحد لتحقيـق السـعـادة .. هـذا الفيلسـوف «الهرقلي» النزعة الذي آلى على نفســه أن يكون والقوة متلازمين، في لحظة واحدة إنهار كل هذا الجبـروت، وخارت كل هذه القوة .. في «لحظة حب» انهدَّ كل ما شـيده من عروش فكره القوية .. فكانت تلك الفتاة الإيطالية التي لا تقاوم أنوثة وجمالا سر تداعيه وضعفه، لقد كسر سحر عينيها أسوار قوته وتعاليه.

والبطل القائـد «أنطونيو» إنهزم أمام عينـي قائدة الجيش المحارب له، وقال الشاعر «أحمد شوقي» على لسانه:

«قدت الجحافل والبوارج قادراً

ما لي ضعفت فقادني جفناك؟»

إننـا أقوياء بأعمالنـا.. وأفكارنا أو نحن نـرى ذلك.. ولكننا سرعان ما ننهزم أمام نفوسنا.. ومشاعرنا وآلامنا.. حتى أحلامنا كثيراً ما تهزمنا أو تخذلنا..!

قسوة الشكوى وجمالها أحيانا..!

تكاد الشـــكوى تكون غريزة في الإنســـان، فحتى الطفل الرضيع يشكو بالبكاء عندما يتأخر الحليب عنه.

الرجل والمرأة.. الأغنياء والفقراء.. الوزراء والخفراء.. الكل يشـــكو إما دهره ـ كما يقول المعري ـ أو حظه أو فقره أو عمله، أو فقد خله.

والشكوى بزعمي نعمة من نعم الله..!

إن الإنسان لابد أن يشكو ليخرج مخبوء صدره لقريب أوخل أو صديق، لأم أو لأب.

وهو ـ بطريقة أو بأخرى ـ يتخلص من همه أيا كان بالتعبير عنه أو الشكوى منه، ويحس بارتياح عجيب حتى لو بقى مصدر هذه الشكوى .. بل لو توجع معك من شكوت إليه.

إنه لابد من الشكوى ـ كما قال الشاعر القديم ـ إلى ذي مروءة، وهو إما أن يواســـيك أو يسليك أو يتوجع معك.. لكنك في النهاية ستكسب ـ أيها الشاكي ـ قدراً كبيراً من الارتياح.

حتى لو أبت عليك عزتك، أو غرورك ـ بادئ الرأي أو الألم ـ من اللجوء الى الشكوى فأنت لابد أن تلجأ إليها فالإنسان ضعيف حين يتفرد بآلامه، قوي بأصفيائه عندما يشاركونه مواجعه.

وحتى الشاعر كمال الشناوي الذي قال بيته الشعري الجميل:

«أنا لا أشكو ففي الشكوى انحناء
وأنا نبض عروقـي كبريــاء»

لقد شكا كثيرا من مواجعه.. وتعثَّـر حبه، وغدر أحبابه، لكنه أراد ـ كشـــاعر أو كرجـــل ـ أن يتظاهر بالعزة، وألا يظهر ضعفه وهو الشاعر الذي نبض عروقه كبرياء.

وأختم هذه السـطور عن الشـكوى بأجمل شـكوى قرأتها.. وياليت كل شـكاوى الناس من هذا النمط.. إذن لاستراح الناس.. وصارت الدنيا جمالاً في جمال.

إنـها شكوى ذلك الشاعر عاشق الحسن والحسناوات.

«ربِّ إن الملاح جاروا علينــا
وتعدوا حدودهم فأجرنـــــا»

أما قلت إنـها أجمل شكوى.. وأكثر الله من هذه الشكاوى التي ليس فيها مواجع ولا محاكم، ولا مدامع..!

• ذاكرة جوالي“ والراحلون ..!

كنت أستعرض « ذاكرة جوالي » لأبحث عن أخ أريد الاتصال به..!

وبين تلك الأسماء لمحت اسم «عزيز» رحل عن دنيانا ..!

توقفت عند اسمه كثيراً..!

تذكرت تلك الســنوات الطويلة التي عشتها معه صديقاً وفياً وأخاً غالياً..!

اســتعدت طيوف تلك الأيام .. هاتيك الكلمات.. تلك المواقف بكل فيوض ذكراها .. وبكل كوثر لحظاتها..!

أهكذا يرحل «العزيز» من دنيانا.!

أهكذا كنا نعيش مع أحبابنا فوق ظهر الأرض يقاسموننا أفراحنا وضحكاتنا وأيامنا وجلساتنا ودموعنا ثم .. ثم في لحظة..!

يغادرون دنيانا.. يرحلون من ظهر الأرض إلى بطنها..

يارب..! رحماك.

كيف للإنســان منا بــكل ضعفه أن يتصور رحيــل أولئك الأحبة بنبرات أصواتهم .. وقسمات وجوههم .. وجميل ضحكاتهم .. وعزيز ذكرياتهم..

كيف يتصور الإنســان منا أنهم قد غــادروا غرف قلوبنا وأرائك مجالسنا وصوالين دورنا إلى ظلام الأرض .. وعتمة القبر.

كيف نستطيع أن نتصور أن هؤلاء الذين أحببناهم وتقاسمنا معهم نعيم لحظات الحياة وشــقاءها قد غابوا عنا فلا نستطيع أن نراهم أو نتحدث معهم..!

كيف نتصــور أنهم بــكل حياتهم وحيويتهــم وحضورهم وبكل أشــكالهم وزياراتهم ومهاتفاتهم أنهم الآن تحت الأرض لا نراهم ولا نحس بهم ولا يروننا ولا يحســون بنا حتي ولو وقفنا على رؤوسهم

وهم الذين كانوا أقرب إلينا من نياط قلوبنا وحدقات عيوننا..!
ما أصدق الشاعر المعري عندما قال:

«خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجســـــاد»

***

لقد عدت من هذه الرحلة التأملية الشـــجية التي أوحاها إلى اسم «هذا العزيز الراحل» في مفكرتي..!
واحترت بعدها - متألما - هل ببســـاطة أمحو اســـمه ورقمه من مفكرتي؟
أليـــس هذا عدم وفـــاء له.. لم لا أبقيه لكـــي أتذكره -على الأقل- كلما استعرضت جوالي ووجدت اسمه لكي أدعو له بالرحمة وليبقى صارية ذكرى لا تتهدم .. لكني تساءلت..!
هل عندما أجعل اســـمه لا يغـــادر هاتفي هل هو - فعلا - لم يغادر دنياي؟
إن اسمه وشـــكله وذكراه ساكنة غرفة قلبي وحديقة مشاعري.. بل إنه هو ساكن بين أهداب عيوني وليس اسمه ساكنا دفتر هاتفي، أو ذاكرة جوالي.
لم يخفف من «لظى هذه الذكريات» التي أوحاها رحيل هذا العزيز إلا أنني عندما محوت اسمه الأول فقط، وضعت مكان اسمه اسم ابنه الكبير.
أحسســـت عندها بفيض الارتياح يتدفق بين جداول قلبي، فاسم هذا «العزيز الراحلٍ» بقي في ذاكرة جوالي وبين عيني ببقاء اســـم ابنه حقيقة لا خيالاً.
أجل أحسســـت بالارتياح «فالوفاء» له كأبســـط حقوقه ســـوف يتواصل - إن شـــاء الله - مع ابنه وبقية إخوته وأسرته، وفي الوقت ذاته سوف أتذكره وأدعو له عندما أرى اسم ابنه.

الغربة: شوق ممض وضني مرهق..!

=١=

أسـراب الحمام بكل براءتها تفـرد أجنحتها لتعود إلى أعشاشـها..!! والبشـر كما أسـراب الحمام يصهرهم الشوق.. ويدمي جوانحهم الحنين عندما يبتعدون عن مرابعهم.. ومواطن أحلامهم.. وحنانهم.. ودموعهم وابتساماتهم.

«ودمـوع الغربة»!! ليسـت وليـدة الألفيـة الثالثة.. وهي بالنسـبة للعربي ارتبطت بأدق مشـاعره لأن قصة العشق بينه وبين صحرائه قديمة، قدم حشـائش أرضه وهي راسخة كسمرة جبالها، ملتهبة كحرارة شمسها!!

وامرؤ القيس أمير الشعر العربي في عصرٍ الذهبي كان أول شاعر عربي نزف مشاعر غربته وخط سطورا من شعره.. عندما ذاق مرارة النوى فأنشد آخر ألحانه:

أيا جارتا إنا غريبان هاهنا

وكل غريب للغريب نسيب!

واسـتمرت «ودموعِ الغربة» تروي ظمأ المشاعر في أفئدة الشـعراء وتطفئ أحيانا حرائق الوجد في نفوسـهم.. وقد أثْرت «دموعِ الغربة» تراثنا الشـعري بكثير مـن القلائد التي لا تزال ألحاناً رقيقة مؤثرة ننشـدها كلما ألح بنـا النوى أو أبعدتنا عن مرابعنا مطالب الحياة.

***

ويبرز في شـعرنا العربي «أبوِ فراسِ الحمداني» الذي أدمى القلوب بقصائده التـي تقطر حزناً ووجداً عندما أسـره الروم،

فعانى الغربة في مشاعره ولغته وترابه.. وكانت «روميانه» كما أسـماها النقاد من أخلد ما حفظه كتابنا الشعري.. ومنها قصيدته الشهيرة التي يقول فيها:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة
أيا جارتا، لو تشعرين بحالي!
معاذ الهوى! ما ذقت طارقة النوى
ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا، ما أنصف الدهر بيننا
تعالى أقاسمك الهموم تعالي
أيضحك مأسو، وتبكي طليقة؟
ويسكت محزون ويندب سالي؟

وقمة الحزن على الوطن عندما يكون الابتعاد قسراً، والنوى جبراً.. عندما يتحول أمل العودة إليه يأساً، عندما تتناءى حبات ترابه كما نأت ليلى عن قيسها.. هنا تفيض أحاسيس الشاعر عبرات متكسرة، وآهات مشقية.. وحدث هذا مع الأندلس وشعرائها عندما خلفوا الأمجاد، ورحلوا عن المآثر.. والمآذن.. وهذا أحدهم يختصر حجم أحزانهم بهذه الأبيات:

في أرض أندلس تلتذ نعماء
ولا يفارق فيها القلب سراء
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها
وكل روض بها في الوشي صنعاء
فيها خلعت عذاري ما بها عوض
فهي الرياض وكل الأرض صحراء

***

الغربة: شوق ممض وضني مرهق..!

=٢=

«الوطن» يتعاظم الشـــجن على فراقـــه عندما يكون ذا ارتباط بوجدان الشـــاعر.. أي عندما يتعلق به: تربة وإنســـانا، عندما يكون هو حبة ومســـكن حبه.. هنا تفيـــض دموع الغربة فتتحول إلى نزيف داخلي يكون مردوده عطاء شـــعريا خالداً كما حدث «لابن زريق البغدادي» في قصيدته المسماة باليتيمة والتي لم يقل غيرها ولكنه خلد بها وخلدت به:

استودع الله في بغداد لي قمراً
«بالكرخ» من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني
صفو الحياة وأني لا أودعه
اعتضت عن وجه خلي بعد فرقته
كأساً أجرع منه ما أجرعه
لا أكذب الله: ثوب الصبر من خرق
عني بفرقته، لكن أرفعه
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا
جسمي ستجمعني يوما وتجمعه.

***

وفي أدبنا الحديث يتجلى عشق الأرض، والجزع على فراقها في أدب شـــعراء المهجر عندما رمتهم أشرعة الغربة في أراض بعيدة عن «الشام» بكل تاريخه ومغانيه.. فهذا «شفيق المعلوف» يبكي بعد فراقه:

نشط الشوق للإياب ونادى
باسم لبنان في الضلوع منادي

كيف لبنان؟ والمغنوه كثر
لم تصفق صناجتاه لشادي
هذه في الفضاء أعلام لبنا
ن على غرة الصباح بوادي
في قلوب المغربين جراح
حملوها على الجبال الجعاد!!

***

وشعراؤنا المعاصرون يعزفون على مزمار الغربة كلما ابتعدت بهم السبل أو شطت بهم موانئ السفر. ومن هؤلاء الشاعر «نزار قباني» الذي قال في «دمشـــق» قصيـــدة تعتبر من أروع قصائد الشعر العربي، عندما جاء إليها بعد سنوات من الغربة والتشرد، فارتمى بين أحضانها ينعم بدفئها، ويقبل فيها الأرض والتاريخ.

يا شام إن جراحى لا ضفاف لها
فمسحى عن جبيني الحزن والتعبا
أتيت من رحم الأحزان يا وطني
أقبل الأرض والتاريخ والشهبا
أتيت فاستقبليني جبهةٍ شمخت
على التراب وقلباً في الهوى اصطخبا
هذه البساتين كانت بين أمتعتيٍ
لما ارتحلت عن الفيحاء مغترباً..!
كم مبحر وهموم البر تسكنه
وهارب من قضاء الحب ما هربا

تلك هي بعض من «دموع الغربة» في الشعر العربي.. نقرؤها فنجد فيها عزاء من هم ونلقي فيها راحة في عناء البعد.

كم من محنة تكون للإنسان منحة .!

كم من محنة يظنها الإنسان كذلك، ثم تكون في عاقبة الأمر منحة.!

وكم من مصيبة يخالها المرء عذاباً ممعناً ثم تكون خاتمتها خيراً عميماً.!

إن الإنسان - في هذه الحياة - لا يعرف حكمة الله وتصريفه للأقدار، الإنسان الذي يرى أنه أعظم المخلوقات هو من الضعف بحيث لا يملك شيئاً من أمره، أو نفساً من أنفاسه، إن أغلى شيء لديه هو حياته وبقاؤه .. ولكنه لا يملك أن يبقى لحظة واحدة عندما يحل به قدر الله فيرحل عن الدنيا.!

من هنا..!

ما أشد غرورنا وجبروتنا نحن البشر الضعفاء.!

إننا نخال أن كل شيء في أيدينا.

لكننا - لو تدبرنا - لوجدنا أنفسنا من أضعف الكائنات.

فنحن نجزع من أي شيء.

وقد نتألم من تافه الأشياء.

إننا كما قال عنا بارئنا: «إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا».

إن الإنسان عندما يصيبه أدنى ضر يتضرع لمولاه، ويكون

عندهـــا أضعف خلـــق الله، لكن عندما ينجيـــه اللـــه من الكرب - ومن كل كرب - إذا هو ينســـى وينكـر ويتكبـر، إن من رحمة الله تعالي أننا لا نعرف أقدارنا وإلا لما عشـــنا للحظات، ولما ســـعدنا لساعات.!

إننا لا نعرف ما ســـوف يواجهنا من آلام أو مشكلات - وهذا من فضل الله - .. بل لا نعلم أهم شيء في حياتنا ألا وهو مغادرتنا لهذه الدنيا.

ولهذا فنحن نعيش على رحمة الأمل بأن حياتنا ســـوف تسير كل أيامها رخاء، وهذا النسيان من رحمة الله بنا.!

مـــن هنا نعمر الأرض والكون وليتنا نكتفي - نحن البشـــر - بذلك، بل نملأ الدنيا فساداً وشراً وأطماعاً وتدميراً ونكراناً.!

***

فقط هي تلك «النفس المطمئنة».!

التي تسير على نهج الاستقامة والاعتدال

ولا تمشي في الأرض مرحاً أو بطراً

نجدها مطمئنة إن نالها خير شكرت وإن نالها سوء صبرت.

بل إن الســـوء الذي ينالها ترجعه إلى النفس ولا تظن بربها ظن السوء.

***

وإنني أذكر هنا قصة مؤثرة ســـمعتها من رجل كبير في السن

رواها لـــي ولمجموعة من الأصحـــاب إذ روى لنا قصة حصلت له ولوالـــده حيث كان مع والده قبل أكثر من ســـتين عاماً وكانا في رحلـــة على البعير متجهين إلى إحـــدى الهجر، وعندما نزلا للراحة والغداء أصابت شـــوكة «القربة» التي تحمل الماء الذي فيه رواء حياتهما في هذه الصحراء، فلم يبق في «القربة» قطرة مـــاء.. يقول : فقلت لوالدي: والله مصيبة لقـــد متنا، فقال والده المؤمن: «وعســـى أن تكرهوا شـــيئاً وهو خير لكـم» «البقرة: ٢١٦» يقـــول: فصمـــتّ علـــى مضض وحدثت نفســـي - وكنت في حوالي الخامسة عشرة من عمري - كيف يجيء الخير ونحن مهـــددون بالموت ؟ وظللنا يوماً كاملاً ننتظـــر من ينقذنا، ثم مر ركب على إبلهم توقفوا وأســـعفونا وأعطونا قربة ماء جديدة، ثم واصلنا رحلتنا، وعندما جاء الليل نزلنا لنســـتريح ونأكل وننام، وعندما صحونا في الصباح وجدنا ذهابنا ومتاع رحلتنا قد سرق كله فأخبرت والدي: فقال قولته الســـابقة: «وعســـى أن تكرهوا شـــيئاً وهو خير لكم» فعجبت من أمر والدي كيف يسرق متاعنا ونبقى دون أي شـــيء ويكون في ذلك خير لنا، وظللنا يوماً كاملاً حتى مر رجل على ناقته فشـــاهد وضعنا فأســـعفنا ثم سرنا نحو هدفنـــا وقد تأخرنا عن جماعتنا يوميـــن كاملين، وعندما وصلنا إلى الهجرة وجدناها قد غرقت حيث أصابها ســـيل كثير في اليوم الســـابق لوصولنا، ومات كثير من أهلها، ثـــم أخذ والدي بيدي

ووجه بصري الى الهجرة ونحن نطل عليها من أعلى أحد الكثبان ثم قال لي: ألم أقل لك : «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» لو لم نتأخر في سفرنا ووصلنا يوم أمس لكنا من المغرقين، ولكن الله أراد لنا حياة وخيراً.!

***

إن الإنســان ـ يرى ـ أمور الحياة مــن منظور قاصر، ومن رؤية يقيسها على سنن الحياة المادية، ولكنه لو فكر وقدر لنظر إلى أمور الحياة من رؤية أعمق وأبعد غوراً.!

إنها حكمة الله في أقداره التي كم نجهلها نحن البشر.!

وكم هو المرء بحاجة إلــى إيمان «عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه» الذي عندما قطعت رجله لألم أصابها ولم يكن من خيار سوى بترها لكيلا يسري الألم إلى بقية جسده، فلم يكن منه إلا أن قال بقوة المؤمن وطمأنينـة المســلم لقدر اللـه: «إن كنـت ياربي قــد أخذت فقد أبقيت فلك الحمـد علـى ما أخـذت ولك الحمد على ما أبقيت».

إنها مقولة مؤمن رباني سكنت الراحة نفسه وجعلت أضواء الأمل والصبر والشكر لله تطفئ نيران الألم.

أما قبل:

اللهم قوّ إيماننا بك

وارزقنا صدق الإيمان بقضائك خيره وشره

مرافئ ثقافية

***

«هوِّن على بصر ما شقَّ منظره
فإنما يقظات العين كالحلم»

«المتنبي»

***

«لو بيدي لو أني أقدر أقلب هذا الكوكب
أُفرغه من كل حروب الأرض
لو بيدي أمسح عن هذا الكوكب
أنياب الفقر»

الشاعرة فدوى طوقان

***

«تطلَّبتُ من دهري أمورًا أريدها
فضنَّ. وأعطاني التي لا أريدها»

«الشاعر محمد حسن فقي»

الكتاب سميري .. حين عز مسامري

-١-

رحلتي الشخصية والمعرفية مع الكتاب بدأت منذ عرفت نفسـي ولعلني ولدت وفي يدي كتاب، إننـي منذ عهد الصبا في مدينتـي «عنيزة» في «نجد» في المملكة العربية السـعودية .. بدأت رحلتي في عشق الكتاب من أول نظرة، لقد كنت محظوظاً إذ نشأت وعلى مقربة مني مكتبة وكتاب وصحف ومجلات وأساتذة ورفاق يحفزونني على القراءة ويجذبونني إليها .

لقـد كان أول كتاب قرأته للمنفلوطي كتاب «النظرات» ولهذا الكتاب ولكتب المنفلوطي أثر كبير في أسـلوبي في مجال الكتابة ذات «الصبغة الرومانسية» في السابق ثم صار الاحتفاء بالشأن الثقافي الاجتماعي والإنسـاني أوفر في نهاية مطافي الكتابي ثم بعد انتقالي إلى مدينة الرياض للدراسة الجامعية اتجهت إلى قراءة دواوين الشعر وكان للشـاعر السعودي المعروف أحمد الصالح «مسـافر» أثر في توجيهي لذلك من خلال إرشـادي إلى بعض الدواوين الشعرية لشـعراء المهجر وعمر أبي ريشة وإبراهيم ناجي وغازي القصيبي .

وهذا العشـق لـلأدب وكتبه وحروفه هو الـذي أدخلني إلى الصحافة لكن جاءت هذه الصحافة الناكرة للجميل فأخرجتني من

نعيـــم الكتابة الأدبية إلى جحيم الكتابة الصحافية وما أزال أكتوي بلظاها.

***

هنـــا أتوقف لأطمئن نفســـي وغيــري من عشـــاق «الكلمة المكتوبة» أنه رغم تفجر المعلومات عبر قنوات المعرفة الحديثة، فقد ظل الكتاب وسيظل مطلوباً وستبقى الكلمة المطبوعة معشوقة فها هي المطابع تضخ صحائف الكتب وها هي دور النشـــر وها هي معارض الكتب تجد الإقبال، ولو لم يكن هناك قارئ لما طبعت صحيفة أو مجلة، ولما نشر سفر أو وزع كتاب ـ المهم أن يوجد كتاب جيـــد ليوجد قارئ متابع، وليس هنـــاك ـ في هذه الحياة ـ شيء ينفي شيئاً .. فالإذاعة لم تنف الكتاب، والتلفزيون لم يقض على الإذاعة، وكذا الحاســـب الآلي والإنترنـــت والجهاز الكفي، فلكل عشـــاقه بل إن هناك تكاملاً بين هـــذه الأدوات الثقافية ولا تقاطع بين مخرجاتها.

وكل يقرأ بالوسيلة التي ينجذب إليها تماماً كما ينام كل إنسان على الجنب الذي يريحه.

الكتاب سميري .. حين عز مسامري
-٢-

يزعجني الآن ـ كما أحس أنه يزعج غيري من عشـاق القراءة ـ شـح الوقت، وكثرة المشـاغل وإيقاع العصر وسرقة الأجهزة بكل أفراد قبائلها «الإنترنتيّة».. هذه التي تحد من السخاء بالوقت لتقرأ وتستفيد وتضيف لمخزونك المعرفي والثقافي.

أعود لرحلتي مع الكتابٍ فعلاقتي بكتب التراث التي لم انفصل عنهـا بحكم دراسـتي أولاً ثم اهتمامي وعشـقي للتراث، ومن الكتـب العجيبة في تراثنا ذلك الكتاب العجيب فعلا الذي أدركت ـ بعـد قراءته ـ كم هو تراثنا غني وعظيم، أعني كتاب «الشـرح الوافي»، إن هذا الكتاب الذي لا تتجاوز صفحاته (٢١٤) صفحة يحوي خمسـة علوم هي: الفقـه، العـروض، التاريخ، النحو، القوافي قدمه مؤلفه «إسـماعيل المقـري» ـ رحمه الله ـ على شـكل جداول منسقة وجميلة في كل صفحة وأدعو هنا إلى تقديم تراثنا بطريقة عصرية تربطه بقضايا عصرنا لشد الناس والجيل الجديد خاصة إليه، ولمعالي الدكتور الأديب عبدالعزيز الخويطر رحمه الله فضلٍ كبير في تقريب تراثنا للأجيال الجديدة حيث أسهم إسـهاماً كبيراً في تقديم تراثنا بطريقة عصرية مغرية عبر كتابه الجميل «أي بُني» (خمسة أجزاء) وعبر موسوعته «إطلالة على التراث» خمسة عشر جزءا.

ثم اتجهت نحو الكتب ذات التناول الفكري والثقافي وبخاصة الكتب التي تجسـد سماحة الإسلام بطرح مستنير ومفكرين ذوي رؤية مستنيرة مثل الشـيخ المفكر محمد الغزالي، والشيخ علي الطنطاوي والمحتفـي بتاريخنا خالد محمد خالد، وبخاصة كتابه «رجال حول الرسول» والذي تحس وأنت تقرؤه أنه يكتب شعراً

مؤثراً لا تاريخاً معلوماتياً، ومثل الشـيخ يوسف القرضاوي في كتابـه «فتاوى معاصـرة» ومن الكتب التـي قرأتها في الآونة الأخيرة وتأثرت بها كتاب «رفع الحرج في الشريعة الإسلامية» لمؤلفه الشـيخ د. صالح بن حميد الذي جسد فيه مؤلفه سماحة الإسلام بمنهج علمي وبأسـلوب مقنع، ومن الكتب التي قرأتها ولايزال صداها في نفسـي كتاب د. غـازي القصيبي «حياة في الإدارة» فهـو من أفضل الكتب الذي كشـف أن الإدارة فن، وأن النجـاح فيها إرادة وإبداع وإيثـار وفريق عمل جماعي وتجاوز للعقبات.

***

وأخيراً ومن خلال ولعي بالكتاب وعشـقي للكلمة المطبوعة أجد ذلك الشاعر السعودي محمد بن عثيمين صادقا عندما قال في بداية القرن الرابع عشر الهجري:

«جعلت سميري حين عز سامري
دفاتر أملتها العقول النوابـغ»

●● إن حلمي أن أتخلص - في يوم من الأيام - من التزاماتي العملية وأن أخصص الوقت الأكثر لتعانق أهدابي خدود الصفحات.. ولم لا يكون ذلك حلماً منتظراً ؟ أليس الكتاب هو الذي كلما أضنتك متاعب الدنيا وأشجان أمتك وجدت على ساعد الحرف الارتياح، وألفيت في دفء الكتاب ما يخفف عنك صقيع الأيام.

إن هذا حلم أستشرف أن يتحقق، وإلا فالقضية كما قالت تلك الشـاعرة الحالمة وهي تغازل أحلامها التي قد لا تسـتطيع لثم شفتيها:

«منىّ إن تكن حقاً أسعد المنـى
وإلا فقد عشنا بها زمنـاً رغداً»

الكلمة بين السيف والورده..!

لا أدري؟!

هل أنا أغرد خارج الســـرب وأنا أستشـــرف أن يعود للكلمة بهاؤها.

وللحرف ضياؤه.

هل أنـــا أحلم وأنا أتطلع إلـــى أن تطفئ قناديـــل الحب قنابل الحروب!!.

وهـــل أنا في دنيا أخـــرى وأنا أدعو وأتـــوق أن يبقى الورد منتصراً على الشوك، والجمال على القبح، والحب على الحرب!.

أما السؤال المحرق كجمرة، النابت كجرح.

هل يطاوعني الزمن في هذه الأماني الحالمة؟

أم هل يستجيب هذا العالم المادي الجاف لابتسامات الطفولة؟

***

أذكر أنني كتبت منذ ســـنوات مقالة أتســـاءل فيها عن نسيان الناس لعزف النغم، وهمس القافية، ونداء المحبة.

تساءلت آنذاك ولا أزال أتساءل:

هل نسي الناس رقة الكلمة.. وإشراقة الحرف؟

أتراهم انشغلوا عن الورود بالرماد؟

هل حضارة «الأســـمنت والرخام» وطرفيـــات «الكمبيوتر»

سرقتهم من جنة الشعر، وخمائل الأحلام؟

أسئلة يطرحها كاتب حالم فينكفئ - أحيانا - بإشفاقة اليائس، عندما ينظر إلى هذا اللهاث المادي، يعود حسيراً لأنه يدري إنه لا يجتمع في غمد «سيف وزهرة»..!

لكن .. رغم غيوم المادة وقنوط الكاتب، يظل عطاء الروح خالداً خلود المحبة .. مضيئاً إضاءة الجمال في أعماق الروح الصافية.. يبقى مدد الوجد هو ما يثري الوجدان ويغني القلب.

وتبقى الكلمة..!

لأن الإنسان منذ عصر الحجر، لا يقدر أن يستغني عن « بوح الوجدان » ولن يستطيع أن يلقى عن ساحته غنى، إنه راحة الروح، واستراحة الخافق .. والعزاء عندما يعز العزاء ..!

إن «كلمةً مضيئة» نقرؤها في مطبوعة أو نسمعها تنداح من شفة، وإن «وردة زاهية» تتضوع عبقها في حديقة.

إنهما: «الكلمة والوردة» يبقى أثرهما في الأعماق ضوءاً، وفي الوجدان ندى .. ضوءا يقتل ظلام الأعماق .. وندى يملأ فراغ الوجدان ..

إن الإنسان لا يستطيع أن يتخلى عن عاطفته أبدا .. ولا يتعاطف مع هذه العاطفة ويسعدها سوى الكلمة الجميلة والحرف المشرق.

النقد بين الموضوعية والذاتية .!

«النقد الصحفي» -لا جــرم- هو روح الصحافة ومواقع التواصل وهو رمحها -أحياناً-.. ! .

لكن السؤال: أي نقد هو المطلوب؟

وهنا أعنــي «النقد الموضوعي» الذي يبحــث عن الحقيقة ويسهم في البناء، وينأى عن الهدم.

وأتوقف عند مسألة بدأت تظهر في كتابات بعض الكتّـاب في صحفنا ومغردي وســائط التواصل أكثر، ألا وهي اتســام الكتابة النقدية بثلاثــة أمور، أولها: «روح الســخرية» التي تصل إلى درجة التجريح والهزء بالمسؤول . وثانيها : «تناول الشخص» والتركيز عليه بأكثر مــن التركيز على نقد الموضوع، وثالثها : تجاهل أي إيجابية أو إنجاز للجهة المنقودة، وكأنها لم تفعل خيراً قط، مع أن الإنصاف يقتضي الموازنة بذكر الحســنات والسيئات والإيجابيات والســلبيات من منطلق أن نقول للمحسن أحسنت، وللمســيء أســأت، فضلاً عــن أن العدل يقتضي الإشــارة إلى الحسنات والإشــادة بها من منطلق الأدب القرآني «ولا تبخسوا الناس أشياءهم».

إن الإنسان لا يرتاب في إخلاص هذه الأقلام، وحسها الوطني، وحرصها أن تكون مؤسسات وطنها على أفضل مستوى، إلا أن «الحمــاس» - ولا أقول «الحرص» على الشــهرة والبحث عن «الوصف بالجرأة» - يجعل هذه الأقلام تشــتط - أحياناً - وتبتعد

عن مقاربـــة الموضوعية، وتجنح بطيور حروفها نحو فضاءات «ذات المسؤول» بأسلوب استهزائي لا يجمل أن يصدر منهم.

وكــم أتطلع أن يربــأ زملاؤنا هؤلاء عن مثل هذا الأســلوب فهو لا يليق بأقلام تقرأ في ثوابت نصوصها: «لا يســخر قوم من قوم»، ولا يحســن أن يصدر من «مصلحين» لطالمـا تردد على مسامعهـم في أدبيات تراثهـم وأخلاقهـم قول حكيمهـم :-

«وكن بلبلاً تحلو الحياة بشدوه

ولا تك مثل البوم ينعق بالردى»

مسألة أخرى لها علاقة بهذا الشأن ألا وهي: إن علينا ـ بوصفنا كتّاباً ومنظرين ـ أن نضع أنفســنا في مواقع هؤلاء المسؤولين عندما نرى تقصيراً أو قصوراً في الأجهزة التي هم مســؤولون عنهــا، إذ قد تكون هناك عقبات وقفت دون إنجاز خططهم، مثل عدم توافـر الإمكانيــات الماليــة التي تحــول دون تحقيــق ما نطالب به، أو معالجة القصـور الذي نكتب عنه، وهذا لا يعني ألا ننقد ولا نكتب عمَّـــا نراه من قصور أو تقصير، لكن لو تصورنا مثل هذه العقبات لحفزنا ذلك على تخفيف حدة نقدنا وقســوته . ولطرحنا ما نريد بأســلوب موضوعي «فمن يأكل الضرب ليس كمن يعده»، وقديماً قال الشاعر الحكيم:-

«لا تعذل المشتاق في أشواقـه

حتى يكون حشاك في أحشائه»

والمسؤول مواطن يتطلع إلى ما نتطلع إليه كُتّـاباً ومواطنين، ولكن قد يصح منهم العزم لكن الدهر يأبى، والإمكانيات لا تواتي.!

وبعد :

إن للكلمة «الهادئة» أثراً لدى المسؤول أكبر بكثير من الكلمة «القاسية» أو «الجارحة» .. بل إن «الأسلوب الهادئ» يجعل المسؤول أقرب إلى التجاوب بدلا من الغضب الذي قد ينتج عنه عدم الاكتراث بما كتب وأقول ذلك عن تجربة، وعلينا أن لا ننسى أن المسؤول بشر له عواطفه وردود فعله، ونحن - الكتَّاب - لسنا أفضل من موسى وهارون اللذين أمرهما الله أن يذهبا إلي فرعون مستخدمين أجمل وأرق أسلوب مع ذلك الذي قال أنا ربكم الأعلى، ولكن الله أمرهما بمخاطبته - بأرق أسلوب - «فقولا له قولاً لينا لعلَّه يتذكَّر أو يخشى».

نحن في هذه المرحلة - على وجه الخصوص - بحاجة إلى خطاب نقدي هادئ في ظل «حوار وطني» يوحد القلوب، وينير الدرب، وينشر خطاب المحبة.

إن الكلمة البانية هي التي تكون قناة رفق ومحبة، والله - سبحانه - يعطي على «الرفق» ما لا يعطي على «العنف» - كما جاء في الحديث، وهي تكون كذلك عندما تعتمر الموضوعية، وتنأى عن «التجريح والسخرية» فالكلمة الطيبة «نهر إصلاح» وكلما كانت أهدأ كانت أقرب الطرق إلى الإسهام في بناء هذا الوطن الذي يوحد بين أبنائه هدف نبيل وغال ألا وهو أن يكون «الوطن الأجمل» دوماً بمنجزه وبإنسانه ومكتسباته ومؤسساته الرسمية والمدنية.!

الشاعر عمر أبو ريشة:
بسماتي سخية وجراحي مضمدة ..!

الشاعر «عمر أبو ريشة» مدرسة شعرية فريدة تحس في كل قصيدة له عطاء متدفقاً، فيه تميز الإبداع، وجدة الصور.. فلو أخذنا «الرثاء» لديه نجده يرحـل بك فـي عالـم شعـري جديد لم يسبق إليه، فعندمـا رثـى الأخطل الصغير لم يسكب الدموع عليه عبر كلمات الرثاء كما يفعل غيره من الشـعراء، لكن تميزه جاء عبر تصور قصائده وكأنها يتامى فقدت أباها وراعيها:

«تيتّمت وهي لا تدري ونشوتها
من كل عنقود ذكرى كنت تعتصـر
رواقص تحمل السلـوى وتكتبهـا
وليس تعلـم ما الدنيـا وما القـدر ؟
فلا تلُمهـا إذا لم تَخْبُ بسمتهـا
ولم يعكر صـدى ألحانهـا كـدر
لم يبلغ الخبر الناعـي مسامعها
عن مثل هذي اليتامى يكتم الخبـر»

«قصيدة بنات الشاعر ص ٦٧»

وماذا عن أشجانه الخاصة التي حملها على كتفه طوال «٨٠» عاماً.. إن هذا الشـاعر عندما يحدثك عن أشـجانه تحس بعظم معاناته الإنسانية، فرغم بهارج المنصب والأضواء والدبلوماسية

فإنها لم تســتطع أن تمسح الأسى من نفســه . اقرأ هذا النشيج الشعري لـه:

«أنا عمر مخضّب وأمانٍ مشـــردة
ونشيد خنقت في كبريائــي تمرَّده
بسماتي سخية وجراحي مضمـدة»

«الديوان ص ٣٢»

ومع هذا لا تجد في شــعره دمعة تأتي مخاض ضعف .. لكن دموعه وليدة كبرياء ..

«وما رثيت لدمع كنت أذرفـــــه
ولا عطفت على جرح أعانيـــــه
واليوم جئتك لا صباً ولا كلفـــا
بل للجمال الذي يذوي.. أعزّيــه»

حتى في أقسى لحظات الألم .. فراق من يحبه، لا تبكي كلماته.. ينتصر كبرياؤه على لحظات ضعفه عند البعاد، ويكبر صبره على جزعه ..

«حكايــة حبنـــا ختمــــــت
فمـــا أشجـــى ولا أقســـى
جميـل منــك أن تعفـــــي
وأجمـل منـــه أن أنســــى»

ومن يقرأ قصائده الغزلية .. على كثرتها لا يجد فيها ســوى العفة والطهر .. إنه لا يتبذل ولا يصف جســد المرأة حتى الإهانة

كما فعل نزار أحياناً الذي لم يترك شــبراً في جسد المرأة: شَعراً ونـهداً وخصراً وســاقاً إلا تحدث عنه إلى درجة الإســفاف .. إن ديوان عمر أبي ريشـــة الذي يبلغ مئات الصفحات لا تجد فيه إلا عفة الهوى، ونقاء الحب، وشفافية الطهر:

«تصغين ..! أغنيتي رفّات أجنحـة
ما مسَّها في ليـالي شوقـه وتــر
نثرتهــا من جراحات مضمّـــــدة
ومن منىً ليس لي في جورها وطر
ردّت إليك عهوداً ما نعمت بهـــا
أيام أنت الصبـا والزهو والخفـــر
ما أحزن الورد لم يُعرف له عبَق
وأضيع الغصن لم يُقطف له ثمـــر»

لقد قلت - أيها الشاعر - في إحدى روائعك:

«بعض الطيور تغني وهي تحتضر»

وبعض البشـــر - أيضاً - ينثرون الابتسامات وجراحهم نازفة داخلياً وإن كانت مضمَّدة ظاهرياً..!

وهي مفارقة عجيبة فالغناء عنوان الفرح والسرور، والبكاء ذروة الشـــجن والحزن . وإذا كان ذلك يصير لبعض الطيور، فإن كثيراً من البشر ينثرون الابتســـامات وإن كانت جراحهم خناجر تمتد بين قلوبهم وأجفانهم.

كم في العين من حور
بين عيون الكلمات وعيون المليحات ..!

=١=

أحياناً بين جمود الحياة ، وثقل بعض القراءات والكتابات يحتاج الإنســــان كاتباً أو قارئاً أن يتهــــادى إلى ضفة مريحة من أطياف القراءة.. وكان من وحي ذلك هذا المقال.. الذي أستشرف أن يريح من تعبت قلوبهم وأحداقهم من كتابات السياسة وحروبها ومن حراب بعض الدراسات الأدبية والنقدية، والإجتماعية.

لا يوجد قوم تغنّوا «بالعين»: شعراؤهم وعشاقهم.. أطباؤهم وعلماؤهــــم.. فقراؤهم وأغنياؤهم.. «العيــــن» عند أمتنا محور الذكاء.. ومنبع الجمال، والموحية بالحب !.

لا أكاد أذكر أنني قرأت لشـــاعر - إلا ما ندر - إلا وينسج من الأهــداب أعذب الألحان بدءاً من الشـــاعر امرئ القيس ومرورا بابن زيدون وحتى شعراء العصر الحديث.

***

سيرحل حرفي - عبر هذه الكلمات - في عالم وعوالم الأهداب، وعينيّ ســـتبحر في بحر العيون.. عيون الحرف وعيون البشـــر معاً.. وكم غرق فيهما من لا يعرف السباحة أقلاماً كانت أم قلوباً!.

لقد توقفت أولا عند الشـــاعر المتنبئ.. الشـــاعر الذي ادعى أنه لغروره تنكزه الأفعي فينكزها.. وأن الســـيف والرمح والليل والقرطـــاس والقلم تعرفه.. لكن هذا الشـــاعر «مكة» «الصلب» انهزم - بعظمة شـــعره وغروره بنفسه - أمام سحر العيون فقال بيته الجميل:

«وما كنت ممن يدخل العشق قلبه

ولكن منْ يبصر عيونك يعشق»

ثم أوقفت قارب حرفي عند الشاعر «أحمد شوقي» الذي قال بيتاً أخاذاً على لسان القائد أنطونيو الذي انهزم في معركته.. لكن لم يهزمه عتاد الجيش المحارب، بل عيون قائدة الجيش الآخر.

وأخيراً: أقف عند شـاعرنا الراحل غازي القصيبي في بيته الشهير:

«وهذه ضحكات الفجر في الخُبر

أم أنها العين كم في العين من حَوَر؟»

والعيون «تَمـرَض» و«تُمرض» - بفتـح التاء في الأولى، وكسـر الراء في الثانية -.. أما أنها تَمرَض فهذا أمر يشـخصه الأطباء فيعالجونها بأمر الله، وأما أنها تُمرض فهذا شـأن يدركه الشعراء والعشاق.. فالعيون تُمرض - على مذهبهم - وأحياناً تقتل وإن كان قتلاً معنوياً، وبخاصة العيون التي في طرفها حور..!

وأما حكاية إمراض العيون للآخرين فقد عبر عن ذلك الشاعر طبيب العيون شـاكر الخوري، حيث جاءته امـرأة تعالج إحدى عينيها فشخصها وأعطاها الدواء وبعد مغادرتها قال وهو - هنا - يحلق في خيالات الشعراء لا في فضاءات الأطباء:

«لها مقلة مرضى وأخرى سليمة

أعالج إحداها وتُمرضني الأخرى

فبين سِقامي في الهوى وعلاجها

أضعتُ بها الاثنين: عقليَ والأجرا»

«يستاهل..!».

***

كم في العين من حور
بين عيون الكلمات وعيون المليحات !.
=٢=

وماذا عن حديث العيون
العيون تقول وتفهم بل هي أحياناً أبلغ من اللسان.
ألم يقل الشاعر المجرّب:

«والعين تعرف من عيني محدِّثها
إن كان من حزبها أم من أعاديها»

والشاعر شوقي في قصيدته التي صدح بها محمد عبدالوهاب:

«وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
عينيَّ في لغة الهوى عيناك !»

والمغني يقول:

«لا تقول.. خلِّي العيون عنك تقول».

وربما أنه رآها أبلغ تعبيراً.
أما أجمل وصف (لحور العين) والمرأة الحوراء فهو في ذلك البيت الذي امتدح فيه الشاعر عدل أحد الخلفاء قائلاً:

«لم يبق للجور في أيامهم أثر
إلا الذي في عيون الغيد من حور»

أرأيتم أجمل من هذا الوصف بالجور والحور معاً.
ما أبهى هذا الجور !.

***

ومـــا دمنا على ذكر المرأة «الحـــوراء» فدعوني أعرج على ضـــد المرأة «الحوراء» وهي المرأة «الحولاء»، وذلك عبر هذه الحكاية الطريفة:

«يروى أن رجلاً تزوج امرأة حولاء وكانت ترى كل شـــيء اثنين فإذا اشـــترى لها زوجها شيئاً واحداً أطنبت في الثناء عليه على أســـاس كرمه وسخائه، فإن اشترى لها كيساً من «السكر» ظنته كيســـين، وإن أتى لها بفســـتان أطرت كرمه الذي حفزه أن يأتي لها «بفســـتانين» وهكذا.. كل شـــيء عندها اثنان والرجل ســـعيد بوصفه بالكرم الذي تنعته به زوجته، ولكنها قالت له مرة وهـــو يهم بدخول غرفـــة النوم: ماهذا الرجل الـــذي معك؟ وهنا أوقفها قائلاً: «كل شيء اثنين إلا في غرفة النوم..!»».

أما بعد

ســـلمت العيون لتمنحنا نعمة البصر، وسلمت الأهداب لتكون ملهمة لنسج أجمل الشعر وأبهى النثر.

إن من البيان لسحرا ..!

كم تحس أن كلمة جميلة أو بيتاً شـــعرياً حكيماً عبّرا عن مكنـــون ذاتك أفضل وأكثر وقعاً مـــن كل الكلمات والعبارات التي يمكن أن تقولها أو تحاول التعبير بها.

قد يحاورك إنســـان حواراً طويلاً لكنه لا يقنعك، لكن قد يروي لك حكمة شاردة أو بيتاً شعرياً يحمل تجربة، أو قصة لها عمقها وبعدها .. وفجأة تجد القناعة قد استوطنت ضفاف نفسك.!

وهنا أذكر ثلاثة مواقف كان الشعر فيها -على وجه الخصوص- هو المتحدث الناقل لما في النفوس والمعبر عنها.

●● مرة كنت في جلســـة ممتعة، وكان ضيف الشـــرف فيها متحدثاً لبقاً ملك أســـماع الحضور . وكان الكل يود لو امتد الزمن فلا ينتهي ولكـــن .. عندما أراد الضيف المغادرة استشـــهد أحد الحضور بهذا البيت الجميل للمتنبي:

«مضى الليل والحب الذي لك لا يمضي

ونجواك أحلى في العيـــون من الغمض»

فـــكان وقع هذا البيت جد كبير علـــى الحضور حيث عبر هذا الانسان على لسان المتنبي أحسن تعبير عما يريد أن يودّع به كل شخص هذا الضيف الكريم.

●● وموقف آخر لصديق مسؤول تربوي سابق هو الصديق

د. عبدالعزيز الثنيان .. كان يتحدث في إحدى المناسبات التعليمية عن أهمية دور المعلم، وأنه عند غياب المعلم القدير فإن كل شيء في العملية التعليمية يبدو ناقصاً، سواء أكان منهجاً أم وسيلة أم مبنى وختم حديثه بهذا البيــت للمتنبي، ومن غير المتنبي مقنعاً ومعبَّراً عن خوالج النفوس:

«ولا تنفع الخيـلُ الكرامُ ولا القنــا

إذا لم يكن فوق الكـــرام كـــرام»

●● موقــف أخير ورقيق أختم به هــذَا الموضوع، وصاحب الموقف الشــاعر الراحل عمر أبو ريشــه عندما رأى ذات مرة امرأة باهرة الجمال تتمشى بين أزهار إحدى الحدائق وكانت هي أجمــل وردها، فأوحى له هذا الموقف بقصيــدة وجدانية أخاذة، وكان فيهــا بيت واحــد دل - بأكثر ما تدل مئات الأوصاف - على جمال هذه المرأة الباهرة الجمال حيث قال فيه على لسانها:

«تزيّـن الورد ألوانــاً ليفتننــــا

أيحلــف الورد أنا ما فتنـــــاه؟»

وقد صدقت هذه المرأة

فالورد نبات بلا إحساس

لكن المرأة جمال يفيض بالإحساس

وإن من البيان لسحرا

وإن من الشعر الجميل - كما النساء الجميلات - لفتنة..!

الشعر الشعبي
و «أنثى عن ألفين رجال»..!

نظلم الشعر الشعبي أحيانا عندما نجرد كل قصائد هذا الشعر من المضمون الجميل، وعندما نشن على جيده حرباً تدعو إلى مواراته التراب..!

إن الرأي المعتدل - في تقديري - أن نأخذ بحسن هذا الشعر وأن نضعه في موضعه، وبالطبع دون أن نمنهجه أو ندرسه.. بل يقف الاهتمام به عند حدود معينة مع التركيز على الاهتمام به في ميدان التذوق والمشافهة والتغني به في ليالي السمر وتحت ضوء القمر.

وبهذا التعامل مع هذا اللون من الشعر لا ضير ولا ضرر منه، إنني - شخصيا - أقرأ الشعر النبطي وأتذوق بعضه - وأقول بعضه - بعد أن لاحظت أن الكثير من المنشور عبر المطبوعات وصفحات الشعر الشعبية قد أساء له وجعل متذوقيه ينأون عنه حيث إن جلّ ما ينشر منه خالٍ من الشعر صورة ومضموناً وجمالا..!

إنك عندما تقارن هذا الكثير الغث بالجيد النادر تقول - في نفسك - هل انقرض المبدعون في هذا الشعر «ابن لعبون والهزاني والقاضي وأمثالهم» فهل تطرد العملة الرديئة - مع الأسف - العملة الجيدة ليس في الاقتصاد - فقط - ولكن في الشعر أيضاً، بل إن المعايير انتكست حيث نجد قصيدة رديئة سواء أكانت فصيحة أم نبطية مزدانة بالحرف الكبير واللون المتميز والرسم التعبيري، بينما نجد قصيدة رائعة قد أخرجت بطريقة ضعيفة وسيئة جداً، والقارئ لا يدري أن الأولى مدفوعة الثمن

والثانية دفع صاحبها إبداعه مهراً لها بين يدي قرائه.

***

●● ما علينا ..

أتوقف هنا عند قصيدة نبطيــة بالغة الجمال جوهراً وصورة وجزالة، لقد أمتعتني قراءتها كاستمتاعي بقراءة قصيدة فصيحة جيدة.!

في هذه القصيدة لهذه الشــاعرة العربية الخليجية: شــموخ المرأة العربية وحياء الأنثى، وعزة المهرة الأصيلة.

وهي شاعرة أعرفها ككاتبة لكن لم أقرأ لها شعراً سوى هذه القصيدة وهي ترمز لاسمها بـ « المبرقعة » وعنوانها:

«أنثى .. ولكني عن ألفين رجال»

وهذا أنموذج مِنها:-

«الله خلَقني فـوق بأعلــى مبانيـــــه
كيف أنزل الواطي ولي منزل عــال
عزمي وصدقي صدقْ بأسمى معانيه
بي عفـّـة المهرة وبي روح خيّـــال
وحدي وصلت العز لآخــر موانيــه
أنثى ولكنــّي عن ألفين رجـّـــــال
واللّي يروح يروح .. ما وِالله أبكيـه
أقـط راسي لو خَطر لي على بال
ما رد للجاهل ولا أسمع حكاويــــه
حياي يمنعني عن القيـل والقــــال
كل يبي قلبي وأنا القلب ما أعطيه
نفسي عزيزة دونها بحور وجبــال»

أجمل حوار.!

للورد مع الناس حكايات كثيرة..!

وللكتَّاب والشعراء - خاصة - حكايات وأشعار أكثر.

وتشبيه المرأة بالوردة أمر طبيعي للتشابه بينهما رقة وجمالاً، ورائحة وشفاهاً، ومع التشابه بين المرأة والوردة فالمرأة تنتصر - دوماً - على الوردة جمالاً وجاذبية ولمى.

ومن أجمل ما قرأت في الموازنة الجميلة بين المرأة والوردة قصيدتين، واحدة لشاعر سعودي هو الشاعر أحمد الصالح «مسافر» كان عنوانها «حيرة الهوى».. رسم في أبياتها الراقصة صورة لا أبهى منها وهو يقارن بين شفتي المرأة، وشفتي الوردة، وهما يقبّلان بعضهما في مشهد جمالي لا أحلى:-

«شفتاك قبَّلتا لمى الوَرد
من منكما المحظوظ بالوِرد
إن الهوى في القبلتين هنا
يحتار في شفتين من يفدى
لكنه - يا ثورة الأشواق - هدهده
سحر اللّمى وحلاوة الشهد»

وأين للوردة سحر اللمى وحلاوة الشهد..؟!

أما المقطوعة الثانية فهي لشاعر آخر وهي تشتمل على

حوار أنيق مليء بالعبق والسحر الحلال، أين منه حوار الساسة المدجـــج بالهجوم والحراب.. يقول الشـــاعر في هذه المقطوعة الباهرة السحر والشذى:-

«قالــت .. وقد لاحت لهـــا وردة
ترفّ كالحلـم بثغـر الصبـــــــاح
يا حسنها : قلت أجل .. فتنـــــة
هيهـات منهــا الفاتنــات الصباح
فانتفضت غضبــى كأن اللّـظـــى
قد لفَّهـا من لفحـه فـي وشـــاح
تقول.. لا.. لا هل للورد مـــا
نملك من حســـن خـدود الملاح ؟
عمر الورد عمْـر يـوم ومـــا
في كل يـوم للــورود انفتـــاح
وحسننا الحسـنُ الــذي كلمــا
قيل: خبا أو خانه الدهر لاح !!»

أرأيتم أجمل من هذا الحوار..؟!

وأقفــل الحديث فليـــس أرقّ من حوار ورود البشـــر وورود الشجر في زمن طغى فيه حوار الحروب، وهدير القنابل.

الشاعر "رامي" بين الحزن والعشق !!

ليس كل الذي نقرؤه يكون جيداً ومضيفاً..!

أحيانا تكون القراءة تجديفاً في «السـراب» وتجميداً لحيوية الفكر.

القـراءة الجيدة هي التي تشـبع عقلك، وتمتـزج حروفها بعاطفتك!!

إن قسر النفس على التحديق في حروف كتاب لا تتفاعل معه هو قتل لكل رغبة فيها نحو الكلمة والحرف..!

ومن الكتب التي لن أنسـى تلك اللحظات التي عشـتها معها كتاب للدكتورة نعمات فؤاد عن الشاعر «أحمد رامي» استطاعت فيه أن تتحـدث عن «رامي» الإنسـان الحزين .. والعاشـق.. الإنسـان الذي جعل من كلماته «ثريات» في عالم المحبين، وليل السهارى..!!

كشـفت في هذا الكتاب سـر «الدمعة» التي خطَ بها كلماته.. وأسرار الآهة التي تغلف حرفه الشعري .. فقبل أن يكون عاشقاً كان مجروحاً بخناجر انغرسـت في صـدره عندما لوعته الأيام فحرمته من حنان الأب، وعاطفة الشـقيقة، وابتسامة الطفولة .. ثم عندما فقـد ابنته الوحيدة «أحلام» وهي بعد في مهد الطفولة والتي سـكب فيها الأبيات أو بالأحرى الآهـات التي افتقدها من

نياط شجنه:-

«سميتها «أحلام» من طـول مـا
ناجيتُ فـي دنيــاي أحلامـــــي
عشقتهــا «طيفا» رفيف الخطــى
يســـبح فــي آفــاق أوهامـــــي
إن نظــرتْ عيني إلــى عينهـــا
غَمَـرتُ فيـــهــا كـل آلامـــــي
سميتها «أحــلام» يـــا ليتنـــي
سميت فيهـــا شيئــاً غير أحلامي
ولم تكـد تفتـرّ عــن بسمـــــــة
كالومض فـــي بحـر الدجــى الطامي
حتى ذوت .. والعمــــر في فجره
لم يعد أفـق المشـــرق الدامـــي»

وكما شقي في نفســـه، وتسربل بدموعه، فقد شقي بالناس.. فقد أوســـعوه لوماً وعذلاً.. لأنه لم يجد سوى مزمار الألم يعزف عليه:-

«يلومنـــي الناس ولــم يجرعـــوا
من نـهــر أيامي الـــذي أجـــــرع»

ولكن تأتي روعة «رامي» أنه كبر على هذا الألم بإحســـاس الفنان .. وشـــعور الإنســـان، فصاغ الدمع أوزانــاً، والشــكوى

ألحانـاً، والألـم شـعراً ـ كما تقول الدكتورة نعمات .. وقد بلور هذه النظرة الإنسانية بقولـه:ـ

«الحـزن أدَّبنـي وهــذب خاطري
وأنالنــي أفق الخيــال السامــــي
وأرق إحســاس أَمَـدَّ عواطفي
فوصلتُ كـل النــاس في أرحامي
قاسمتهم أحزانهـم وحملت من
أعبائهــم شطــرا مـــن الآلام»

وقد كان صادقاً جداً في هذه الأبيات، فكم أغفى من آهة كانت مســتيقظة في قلب عاشــق أو حزين .. فجعلــه يترنم بقصائده الخالدة.. تطفئ الحريق في دنياه.!!

إن شــعر رامي ـ رحمه الله ـ عالم مــن الأحلام.. والرؤى.. والأغاريــد الوالهة .. ومــن يقرأ ديوانه يجــده خلوا من المدح والهجــاء وأشــباه هذه الأغــراض .. فأنت لا تفتــح عينيك في ديوانه إلا على ورقة خضراء رســمها بنشيده أو تنهيدة جسدها بقصيده..!!

الشاعر "حمزة شحاتة" وشجون لا تنتهي !!

الشـــعر ـ كما قال أحد أوتاره المجيـــدةـ ليس حمامات نطيرها.. الشـــعر قدرة خلاقه.. تستطيع أن تستأثر وتؤثر.. وهو مزمار حالم لا يقدر ســـوى المبدعين علـــى الدنو منه ؛ من أجل إبـــداع ألحان تخاطب لهفة الشـــوق، ولوعة الإنســـان، وحنين الأرض.. ليعيش المتلقي لها في عالم آخر من الرؤى التي تلبس رداء الخيال فتمتع وتقنع.

و «حمزة شـــحاته» الشاعر الذي فلســـف الغربة.. والحزن بقصائد تحمل روح الفن ومقدرة الفنان .. وديوانه «أشـــجان لا تنتهي» .. أعطى بعض الملامح عن شـــحاته الشـــاعر في حرفه وحياته . وإن كان لم يعط الصورة الكاملة .. حيث لم يحو الديوان إلا أجزاء قليلة من شعره.

أشـــهر قصائد هذا الديوان : «شـــجون لا تنتهي» والتي بلغ طولها «١٥٠» بيتاً، وهي ترجمة أمينة لفلسفة التأمل التي لون بها هذا الشاعر حياته.

وتتجلى فيها مثالية «حمزة شـــحاتة» عندمـــا يطوف حالماً بمدينـــة فاضلة .. عامـــرة بالوفاء، مضمخة ســـقوفها بالحب .. لا نكد فيها ولا حســـد .. بل تتهادى بها عـــذارى الجمال كأحلام الربيـــع، وهـــو يعلم في دخيلته أنـــه لن يجدهـــا .. لكنها طريقة

«الرومانســيين» الذين إذا لم يجدوا العزاء في الواقع ظفروا به على جسور الخيال:-

«عازفات عن الهـوى ومغانيـه
هياما بالواحـة الخضـراء
حيث يصحو الجمال بالطهر والصدق
إلى قمـــة الوفـاء والحيـــاء
حيث تجفـو النفـوس كل الحقـارات
لتحيـا بصفحـــة بيضـــــاء»

***

و«الليل» .. رفيق الشعراء والعاشقين ..!!
ترى..!
ما هي العلاقة الشعرية بينه وبين شاعرنا .. إن الليل بالنسبة لحمزة شـــحاته هو كهف حنانه، ودنياه المريحة .. وفي قصيدته «الليل والشـــاعر» يتبدّى الالتحام بين قلب الشـــاعر وقلب الليل حيث يجد في سكينته ما افتقده في صخب النهار .. فيقول مخاطبا الليل:-

«يا فيلسوفا أصغـــرت نفســـــــــــه
مناعـــم العيـــش وألوانــــــه
كم ساخـــــط زايلــــــه رشـــده
مستيئســـا أســكـتَ حرمانــــه

وبائـــس ـ نــاداك ـ لبّـيتـــــه

والصـبر ـ ويـح الصبر ـ قد خانـه

وعاشـــق يخفـــق فـــي صـــدره

قلـــب يهدّ الوجـد أركانـــــه

وأمّ طفـل أنّ في حجرهـــــــا

تحـــس كالأسهـــم إرنانـــه

أهديتـــه النـــوم رفيقـــا بـــه

ففر ساجى الطـــرف وسنانـــه»

إن حمزة شحاتة يخاطب الليل كما يخاطب إنساناً عامراً قلبه بالإنسانية .. فهو أعطى لليل معنى الحنان والرحمة .. ولم يخاطب الليل أو يجعل ارتباطه به ارتباطاً مادياً.. كما فعل الخيام ـ مثلا ـ!!

إن القارئ لشـــعـــر «حمزة شحاتة» يحس فيه رقة الشريف الرضي، وغربـة أبي فراس، وفلسفة المعري.

شاعر الحِرمان ..!

إبراهيم ناجي ..!

هذا الشــاعر الطبيب ســكنت ســياط الحب قلبه واستوطنت سيوف الجراح حروفه.

إنك تلمح في كل بيت من أبياته نزيف شوقه .. وأشلاء شجنه.. وكأن حياتــه «الأطلال» أو هي - بالفعــل - «الأطلال» أراد أن يعيــد لها الرواء.. ولكن فجرها أطل عليه « كالحريق » فالتهمت نيرانه بقايا ابتســاماته.. وأحلامه .. فعزف على شظايا قلبه هذا البيت المليء حزناً وصدقاً..

«أشتري الأحلام من سوق المنى

وأبيع العمر في دنيــا الهمــوم»

وهــل أقســى ممــن يشــتري الأحــلام .. ولكنــه لا يجــد ذلــك «الإنســان» الــذي يجعل هــذه الأحلام تــورق وتخضل.

في ديوان ناجي «الطائر الجريح» تلمس ذلك الحب الجريح.. الذي لم تبق منه ســوى الأطلال، وتلاقي الغربــاء.. بعد ما كان يرى «حبيبه » يسير في رواق قلبه، وبين أهداب عيونه «واثق الخطوة يمشي ملكا»..

مؤلم جدا أن يتحول «الحــب» إلى لهيب يحرق، بعد أن كان زهرة تتأرج وتورق:

«ذوت الصبابـــة وانتهـــت

وفرغت مـــن آلامهـــــا

فـــي ليلـــة ليـــلاء أرقتنـــي

عصيـــب ظلامهـــــــــــــا

هدأت رسائـــــل حبهـــا

كالطفــــــل في أحلامهـــــــــا

أشعلـــــت فيهـــا النـــــار

ترعى فـــي عزيـــز حطامهـــا

تغتـــال قصـــة حبنـــــا

من بدئهـــــا لختامهـــــــــــا

أحرقتهـــــا ورميت قلبي

في صميـــم ضرامهـــــــــــا»

هـــذا هو «ناجي» لقد دفن قلبه قبل أن يدفن جســـده.. فعاش بلا قلـــب .. ومن هنا جاء ديوانه « الطائر الجريح » لوحة ألم .. وواحة شجن..

هذا هو نـاجي

الذي عذبـــه الحرمان .. ولكنه ـ رحمـــه الله ـ أمتع متذوقي الشعر بصادق الشعر وجميل البيان.

في مدخل الحمراء كان لقاؤنا ..!

= ١ =

نادرة تلك المواقف التي تمتزج فيها البسمة بالدمعة..! يورق فيها شجر الألم.. ويكبر شجن القلب .. يختلط فيها نشيد الفرح بنشيج الشجن.. والإنسان يعيش أحياناً هذا الموقف في مكان محدود.. وفي زمان محدود .. وفي لحظات مشهودة..!

ولقد عشت هذه الحالة مرتين وفي ذات المكان.!

أما الزمان فمختلف..!

أما المكان فهو مدن الأندلس غرناطة وقرطبة وإشبيلية..!

ولن أكون في هذه الكلمات نائحة ثكلى.. أو "خلوجاً" مكلومة.. فلقد غزلنا «نحن العرب من الدموع خياماً» .. فما أعادت لنا عزاً.. ولا رفعت عنا ذلاً..!

إنني فقط سأسطر مشاعري وأنا أزور هذه الديار كعربي مسلم "أكل الحزن من حشاشة قلبه" .. ولابد – أحياناً – من شكوى إلى من يتقاسمون معك رغيف تاريخك ودم أشجانك، فقد تجد في الشكوى تسرية أو سلوى.

ها هي ذي الأندلس ..

وسنوات لا تنسى .

ما بين دخول عبدالرحمن الناصر إلى الأندلس بنخلته

العربية، وشــموخه الإسلامي، وما بين تســليم عبدالله الصغير مفاتيح "غرناطة" آخر معاقل المســلمين في أوروبا إلى ملكي قشــتاله النصرانيين بعد ثمانية قرون من الحضارة التي زرعها العرب المسلمون اخضراراً, وعدلاً ومجداً..!

***

كانت الخطوة الأولى..

فــي قصر الحمــراء.. حيث كان اللقــاء الأول .. اللقاء مع الحضارة العربية الإسلامية الشامخة.. قصر الحمراء بكل شموخه وعظمته وتاريخه.. يســتقبلك وأنت العربي الذي لا تملك أمته إلا الماضي الزاهي ، والحاضر الحزين، والمستقبل المجهول..

و «لا غالب إلا الله»..!

تراها منقوشة على الأبواب.

تجدها محفورة على جدران النوافي.

«لا غالب إلا الله».

أحسســت وأنا أقرأها أن أولئك الأجداد عندما كتبوها أرادوا بها وباستشــعارهم للمســتقبل أن نرددها ونحن نزور آثارهم إذ أضعناها..! و«لا غالب إلا الله» تجيىء بلســم عزاء.. وســطر مواساة.

***

هائنذا في قصر الحمراء..

ها هي ذي ســـاحة العدل حيث نشر المسلمون العدل، فلم ير العالـــم حكماً أعدل من حكمهم ـ كما قـــال أحد أدباء الغرب ـ ها هو «بهو الأخوين» حيث الأخوة الصادقة قبل أن نعيش في زمن عربي صعب يغدر فيه الأخ بأخيه.. وها هي «ســـاحة الأسود».. الأســـود من موسى بن نصير إلى طارق بن زياد إلى عبدالرحمن الداخل..

وهائنـــذا أنظر إلى تلك الهندســـة العجيبة في طريقة جريان الماء حيـــث لا إمكانات فنية ولا تقنية موجـــودة، ومع ذلك بقي تنظيم وتوزيع الماء عملاً رائعاً يلفت الأنظار حتى يومنا هذا..

وهـــا هي «جنة العريف» في قصر الحمراء التي لم أر أبدع ولا أجمل منها حيث زُرعت ونســـقت بطريقـــة رائعة لا تملك إلا أن تترحـــم وأنت تتجول فيها على أولئك الذين بنوها ونســـقوها وزرعوها..

وعندمـــا خرجت من قصر الحمـــراء لم أملك دمعة فرت من محجر عيني بعد أن حبستها طويلاً.

في مدخل الحمراء كان لقاؤنا ..!

=٢=

مع تدحرج تلك الدمعة «الأندلســـية» تنثال من ذاكرتي ذكـــرى أبو عبــدالله الصغير، الصغير فعلاً وتاريخاً عندما ســلم مفاتيـــح غرناطة المدينة الرائعة إلـــى النصارى عام «٨٩٧هـ» وظل يبكي بعدها ليســـتمر نـهر الدمـــع العربي متدفقاً حتى يومنا هذا، ومنذ نهرته أمه بكلماتها الشـــجية "ابك كما تبكي النســـاء ملكا لم تحافظ عليه كما يحافظ الرجال".

آه .. يا أبا عبدالله الصغير ..

ماذا فعلت بنا.!

لـــو تعلـــم أن ذلتك أمـــام أعدائك كانت بداية مسلســـل الذل العربي..!

آه..

يا أبا عبدالله الصغير.. كيف فعلت فعلتك هذه..

يا أيتهـــا «المرأة الملتحية» كما أطلق عليك أحد المؤرخين في لحظة غضب، أو لحظة شهامة .. أو لحظة حزن..!

***

وماذا بعد الحمراء..!

هـــا هي «قرطبـــة» بجامعها العربي التـــي خرَّجت العلماء والأدباء .. ها هو جامعها الكبير الذي كانت ساحته تمتلئ بالآلاف من الركع السجود.

ها هي حلقات العلم والكتاتيب .. وها هم طلاب العلم والأدب يفدون من أقطار الدنيا لينهلـــوا العلم والحضارة والقيم من هذه الجامعة الإسلامية الكبرى ..!

وماذا عن جامع قرطبة الآن..!

ها هي أجزاء كبيرة منه تتحول إلى «كنائس» ترفع الأجراس بدلاً من الآذان .. وتمتلئ بالقسيسين بدلاً من العلماء..!

ولمثل هذا يذوب القلب من كمد..!

وماذا في قرطبة أيضاً..؟

ها أنت تتذكر شـــاعرها «ابن زيـــدون» صاحب «ولادة بنت المستكفي» وذلك الحب العفيف الظامي الذي فجر نبع الشعر في إحساس ومشـــاعر «ابن زيدون» فكان ذلك الشعر الذي يتغنى به العشـــاق كلما مســـهم طائف من الهوى أو لذعهم حارق من الجوى..كأنك وأنت في «قرطبة» ترى «ابن زيدون» يغني على مسامعك:

«أضحى التنائي بديلاً عن تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
إن طالما غير الدهر المحبينا»

وها هي «ولادة بنت المستكفي» الأميرة العربية، والأديبة الرقيقة، والفاتنة الجميلة تســـهم في نشـــر العلم.. وتفتح أبواب بيتها ليصبح منتدى يلتقي فيه الشعراء، ويتبارى الأدباء.

***

تلويحة الوداع

●● الوداع فضاء شجي !

ولا يمســـح ألم الوداع إلا أمل اللقاء وصدق الشـــاعر أبو تمام:

«و لو عرف الناس التلاقي وحسنه

لـحُبَّب من أجل التلاقي التفرق»

كتب صدرت للمؤلف

١- أولها كتاب «الشيخ حسن آل الشيخ الإنسان الذي لم يرحل».

٢- «أشرعة للوطن والثقافة»

٣- «رؤية حول تصحيح صورة بلادنا وإسلامنا»، الذي ترجم إلى اللغة الإنجليزية.

٤- «غاب تحت الثرى أحبَّاء قلبي»" في ثلاث طبعات.

٥- «الثقافة الورقية في زمن الإعلام الرقمي».

٦- «قراءة في جوانب الراحل د. غازي القصيبي الإنسانية»، في أربع طبعات

٧- «د/عبدالعزيز الخويطر: وسم على أديم النزاهة والوطن"١٤٣٦ هـ».

***

صدر عن المؤلف

● صدر عنه كتاب "حمد القاضي فارس الثقافة والأخلاق"، عن ملتقى الوراق بالرياض للباحث أ/ يوسف العتيق.

***

التوزيع

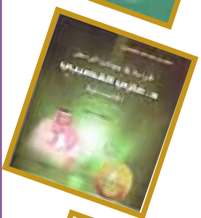
● مكتبة جرير ● مكتبة العبيكان ● الشركة الوطنية للتوزيع

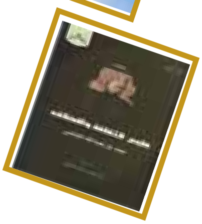
***

دخل جميع الكتب للجمعيات الخيرية والاجتماعية









هذه المرافئ

هذه المرافئ !
حمد القاضي لا يغمس قلماً في مداد ..
ويكتب على ورقة ..
إنه يغمس وردة في محبرة الحب ..
ويكتب على شغاف القلوب ..
لهذا تجيء كلماته رقيقة دوماً .. ناعمة دوماً ..
حتى عندما يلامس المأساة ..
ويفتح الجراح ..
وفي هذه المرافئ ..
حديث عن قضايا الإنسان كلها ..
عن الموت والحياة .. والسلم والحرب ..
والفوات واللقاء .. والمرض والعافية ..
والضحك والبكاء .. والبداية والنهاية ..
كلمات عن الهموم الكبيرة ..
وكلمات عن الهموم الصغيرة ..
كلمات رقيقة كلها ..
ناعمة كلها ..
كوردة مغموسة في محبرة الحب !

د/ غازي القصيبي

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٠-٢٦٥٠-٤

مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٢٨٠ ـ ٤٩٨٠٧٧٦ الرياض